اقرأ

دكتورة نوال السّعداوى

مُذكِّرات طبيبة



١

بدأ الصراع بينى وبين أنوثتى مبكراً جداً . . . قبل أن تنبت أنوثتى وقبل أن أعرف شيئاً عن نفسى وجنسى وأصلى . . . بل قبل أن أعرف أى تجويف كان يحتوينى قبل أن ألفظ إلى هذا العالم الواسع .

كل ما كنت أعرفه فى ذلك الوقت أننى بنت كما أسمع من أمى . بنت !

ولم يكن لكلمة بنت فى نظرى سوى معنى واحد . . . هو أننى لست ولداً . . . لست مثل أخى . . .

أخى يقص شعره ويتركه حراً لا يمشطه وأنا شعرى يطول ويطول وتمشطه أمى فى اليوم مرتين وتقيده فى ضفائر وتحبس أطرافه بأشرطة . . .

أخى يصحو من نومه ويترك سريره كما هو وأنا علىّ أن أرتب سريرى وسريره أيضاً .

أخى يخرج إلى الشارع ليلعب بلا إذن من أمى أو أبى ويعود فى أى وقت . . . وأنا لا أخرج إلا بإذن .

أخى يأخذ قطعة من اللحم أكبر من قطعتى ويأكل بسرعة ويشرب الحساء بصوت مسموع وأمى لا تقول له شيئاً . . .

أما أنا . . . أنا بنت! علىّ أن أراقب حركاتى وسكناتى . . . علىّ أن أخفى شهيتى للأكل فآكل ببطء وأشرب الحساء بلا صوت . . .

أخى يلعب . . . يقفز . . . يتشقلب . . . وأنا إذا ما جلست وانحسر

الرداء عن سنتيمتر من فخذى فإن أمى ترشقنى بنظرة مخلبية حادة فأخفى عورتى . . .

عورة !

كل شىء فىّ عورة وأنا طفلة فى التاسعة من عمرى !

حزنت على نفسى .

أغلقت باب غرفتى علىّ وجلست أبكى وحدى . . .

لم تكن دموعى الأولى فى حياتى لأنى فشلت فى مدرستى أو لأنى كسرت شيئاً غالياً . . . ولكن لأنى بنت !

بكيت على أنوثتى قبل أن أعرفها . . .

فتحت عينى على الحياة وبينى وبين طبيعتى عداء .

* * *

قفزت درجات السلم ثلاثاً ثلاثاً لأهبط إلى الشارع قبل أن أفرغ من عد عشرة . . .

إن أخى ورفاقه من أولاد وبنات الجيران ينتظروننى لنلعب عساكر وحرامية . . . ولقد أخذت إذناً من أمى بالخروج . . . أحب اللعب !

أحب الجرى بأقصى سرعة . . . أشعر بسعادة طاغية وأنا أحرك رأسى وذراعى وساقى فى الهواء . . . وأنطلق فى قفزات عالية لا يحدها إلا ثقل جسمى تشده إليها الأرض . . .

لماذا لم يخلقنى الله طائراً أطير فى الهواء مثل هذه الحمامة وخلقنى بنتاً ؟ خيل إلىّ أن الله يفضل الطيور على البنات . . .

ولكن أخى لا يطير . . .

واستنى هذه الحقيقة بعض الشىء . . . أحسست أن الولد بالرغم من حريته الواسعة فهو عاجز مثلى عن الطير . . . وأصبحت أفتش دائماً عن مواطن العجز فى الرجل لتعزينى عن ذلك العجز الذى تفرضه علىّ أنوثتى .

لا أدرى ماذا حدث لى وأنا أقفز . . . أحسست برجفة عنيفة تسرى فى جسدى ودوار فى رأسى . . . و رأيت شيئاً أحمر اللون !

ما هذا ؟

انخلع قلبى من الهلع وانسحبت من اللعب وصعدت إلى البيت وأغلقت على نفسى باب الحمام لأبحث فى الخفاء سر هذا الحادث الخطير . . .

ولم أفهم شيئاً . . . وظننت أن فى الأمر مرضاً مفاجئاً ألمّ بى . . . وذهبت إلى أمى أسألها فى ذعر . . .

و رأيت أمى تضحك فى سعادة . . . وتعجبت كيف تقابل أمى هذا المرض الفظيع بتلك الابتسامة العريضة . . .

و رأت أمى دهشتى وحيرتى فأخذتنى من يدى إلى غرفتى حيث قصت علىّ قصة النساء الدامية . . .

* * *

لزمت غرفتى أربعة أيام متتالية لا أملك الشجاعة على أن أواجه أخى أو أبى أو حتى الخادم الصغير .

لا بد أنهم اطلعوا جميعاً على عورتى . . . ولا شك أن أمى فضحت سرى الجديد . . . وأغلقت الباب علىَّ أفسر بينى وبين نفسى هذه الظاهرة الغريبة . . . ألم تكن هناك طريقة أخرى تنضج بها البنات غير هذه الطريقة الملوثة؟ أيمكن لإنسان أن يعيش أياماً تحت سيطرة عضلاته اللاإرادية الغاشمة ؟ لا بد أن الله يكره البنات فوصمهن جميعاً بهذا العار . . .

وشعرت أن الله قد تحيز للصبيان فى كل شىء . . .

ونهضت من فراشى أجر كيانى الثقيل ونظرت فى المرآة . . . ما هذا ؟ نتوءان صغيران نبتا على صدرى !

آه ليتنى أموت !

ما هذا الجسم الغريب الذى يفاجئنى كل يوم بعار جديد يزيد ضعفى وانكماشى ؟ !

ترى أى شىء آخر سينبت فى الغد على جسدى؟ أو ترى أى ظاهرة أخرى جديدة تتفجر عنها أنوثتى الغاشمة !

• • •

كرهت أنوثتى . . .

أحسست أنها قيود . . . قيود من دمى أنا تربطنى بالسرير فلا أستطيع أن أجرى وأقفز . . . قيود من خلايا جسمى أنا . . . تسلسلنى بسلاسل من الخزى والعار فأنطوى على نفسى أخفى كيانى الكئيب . . .

لم أعد أجرى . . . ولم أعد ألعب . . .

هذان النتوءان على صدرى يكبران ويهتزان كلما مشيت . . .

وقفت حزينة بقامتى الطويلة الفارعة أخفى صدرى بذراعى وأنظر فى حسرة إلى أخى وزملائه وهم يلعبون . . .

كبرت . . . كبرت عن أخى مع أنه أكبر منى سناً . . . كبرت عن أمثالى من الأطفال فانسحبت من وسطهم وجلست وحدى أفكر . . .

انتهت طفولتى . . . طفولة قصيرة سريعة لاهثة . . . لم أكد أحس بها حتى أدبرت وخلفت لى جسد امرأة ناضجة يحمل فى حناياه طفلة فى العاشرة من عمرها . . .

* * *

رأيت عينى البواب وأسنانه تلمع وسط وجهه الأسود سواد الفحم . . واقترب منى وأنا أجلس وحدى على دكته الخشبية أتابع بعينى أخى ورفاقه وهم يجرون ويقفزون . . .

وأحسست بطرف جلبابه الخشن يلمس ساقى وشممت رائحة ملابسه الغريبة فابتعدت فى اشمئزاز لكنه اقترب منى مرة أخرى وحاولت أن أخفى عنه خوفى بمراقبة أخى وزملائه وهم يلعبون لكنى أحسست أصابعه الغليظة الخشنة تتحسس ساقى وتتسلقهما من تحت ملابسى ! . . .

ووقفت مذعورة واندفعت أجرى بعيداً عنه . . .

هذا الرجل الأسود الكريه أيضاً يتطلع إلى أنوثتى ؟ !

وأخذت أجرى حتى دخلت البيت . . . وسألتنى أمى عن سبب

انزعاجى . . . ولم أستطع أن أقول لها شيئاً . . . لعلى شعرت بالخوف أو الخزى أو كليهما ... أو لعلى ظننت أنها ستعنفنى وأنه لن يكون بيننا ذلك الود الذى يجعلنى أحكى لها أسرارى . . .

• • •

لم أعد أخرج إلى الشارع . . . ولم أعد أجلس على الدكة الخشبية ...

هربت من تلك المخلوقات الغريبة ذات الأصوات الغليظة والشوارب التى يسمونها رجالا . . . وخلقت لنفسى عالماً خاصاً من صنع خيالى ... جعلت من نفسى فيه إلهه ، وجعلت من الرجال مخلوقات عاجزة غبية تقوم على خدمتى . . .

وجلست فى عالمى على عرشى الرفيع أرتب العرائس فوق الكراسى وأضع الصبيان على الأرض وأحكى لنفسى القصص والحكايات . . .

ولم يكن ينغص علىّ حياتى فى وحدتى مع خيالى وعرائسى سوى أمى . . . بأوامرها الكثيرة التى لا تنتهى . . . أعمال البيت والمطبخ. . . دنيا النساء المحدودة القبيحة التى تفوح منها رائحة الثوم والبصل .

لم أكن أهرب إلى عالمى الصغير حتى تجرجرنى أمى إلى المطبخ وهى تقول :

— مصيرك إلى الزواج . . . يجب أن تتعلمى الطبخ . . . مصيرك إلى الزواج . . . الزواج ! الزواج !

تلك الكلمة البغيضة التى كانت ترددها أمى كل يوم حتى كرهتها . . .

ولم أكن أسمعها حتى أتمثل أمامى رجلا له بطن كبير فى داخله مائدة طعام . . .

ارتبطت فى ذهنى رائحة المطبخ برائحة الزوج . . .
وكرهت اسم الزوج وكرهت رائحة الأكل .

* * *

سكتت جدتى العجوز عن الثرثرة ونظرت إلى صدرى . . . ورأيت عينيها المتآكلتين تتأملان البرعمين الجديدين البارزين وتزنهما . . . ثم رأيتها تهمس لأمى بشىء . . .

وسمعت أمى تقول لى : ارتدى الفستان اللبنى لتدخلى وتسلمى على الضيف الذى مع أبيك فى الصالون . . .

وشممت رائحة مؤامرة فى الجو . . .

وكنت أقابل معظم أصدقاء أبى وأقدم لهم القهوة . .. وأحياناً أجلس معهم وأسمع أبى وهو يحدثهم عن تفوقى فى المدرسة فأشعر بالفرحة وأحس أن أبى باعترافه بذكائى ينتشلنى من دنيا النساء الكئيبة التى تفوح منها رائحة البصل والزواج . . .

ولكن لماذا الفستان اللبنى ؟ ذلك الفستان الجديد الذى أكرهه . . . فى صدره كشكشة غريبة تستقر على نهدى وتزيد من بروزهما . . .

ونظرت إلىّ أمى تتفحصنى . . . وقالت : أين الفستان اللبنى ؟

ورددت فى غضب : لن ألبسه ! . . . ولمحت بوادر التمرد فى عينىّ فنظرت إلىّ فى أسى وقالت : ساوى حاجبيك إذن . . .

ولم أنظر إليها . . . وقبل أن أفتح باب الصالون لأدخل عبثت بأصابعى فى شعر حاجبى فنكشتهما . . .

وسلمت على صديق أبى وجلست . . . ورأيت وجهاً غريباً مخيفاً له نظرة مدققة فاحصة تشبه نظرة جدتى . . .

وقال أبى : إنها أولى فرقتها هذا العام فى الابتدائية . . .

ولم أر فى عينى الرجل أى تعبير عن إعجاب بهذا الكلام . . . ورأيت نظراته الفاحصة تحوم حول جسدى وتستقر فى النهاية على صدرى فوقفت مذعورة وخرجت من الحجرة أجرى كأنما عفريت يطاردنى . . .

وتلقتنى أمى وجدتى على الباب بلهفة وشوق وقالتا فى نفس واحد . . هيه . . . ماذا فعلت؟

وصرخت فى وجههما صرخة واحدة وجريت إلى غرفتى وأغلقت الباب علىّ . . . وذهبت إلى مرآتى أنظر إلى صدرى . . .

كرهتهما! هذان البروزان! تلكما القطعتان الصغيرتان من اللحم اللتان تحددان مستقبلى! وددت لو أجتثهما من فوق صدرى بسكين حاد !

ولكنى لم أستطع . . . استطعت فقط أن أخفيهما . . . أن أضغط عليهما بمشد سميك ليبطهما . . . .

* * *

هذا الشعر الطويل الثقيل . . . الذى أحمله فوق رأسى فى كل مكان . . . يعطلنى كل صباح ، ويرهقنى فى الحمام ، ويلهب رقبتى فى الصيف . . .

لماذا لا يكون قصيراً حراً كشعر أخى ؟ لا يحمله فوق رأسه ولا يعطله ولا يرهقه ؟



ولكن أمى تتحكم فى حياتى ومستقبلى وجسدى حتى خصلات شعرى . . .

لماذا . . . ؟

لأنها ولدتنى ؟ ولكن أى فضل لها فى أنها ولدتنى ؟ كانت تمارس حياتها الطبيعية كأى امرأة ثم جئت أنا بغير إرادتها فى لحظة من لحظاتها السعيدة . . . جئت دون أن تعرفنى . . . ودون أن تختارنى . . . ودون أن أختارها . . .

لقد فرضت عليها ابنة وهى فرضت علىّ أماً . . .

أيمكن لإنسان أن يحب مخلوقاً فرض عليه ؟ و إذا كانت أمى تحبنى رغماً عنها بغريزتها فأى فضل لها فى هذا الحب ؟ وهل هى ترتفع كثيراً عن القطة التى تحب أولادها حيناً وتأكلهم حيناً آخر ؟

أليست هذه القسوة التى تعاملنى بها أمى أكثر إيلاماً لى مما لو أنها أكلتنى ؟ !

وإذا كانت أمى تحبنى حباً حقيقياً هدفه سعادتى وليست سعادتها ، فلماذا تكون كل أوامرها و رغباتها تتعارض مع راحتى وسعادتى ؟ !

أيمكن أن تحبنى وهى تضع السلاسل كل يوم فى قدمى وفى يدى وحول رقبتى ؟ !

* * *

خرجت لأول مرة فى حياتى من البيت دون أن آخذ إذناً من أمى . . .

مشيت فى الشارع وقد منحنى التحدى نوعاً من القوة ولكن قلبى

كان يخفق من الخوف . . .

ولمحت لافتة كتب عليها : حلاق للسيدات . . .

ترددت لحظة ثم دخلت . . .

نظرت إلى خصلات شعرى وهى تتلوى بين فكى المقص الحاد ثم تهوى إلى الأرض . . .

أهذه الخصلات هى التى تقول عنها أمى إنها تاج المرأة وعرشها ؟ أيخر تاج المرأة هكذا صريعاً فى لحظة إصرار واحدة ؟ وشعرت باستخفاف شديد نحو النساء . . . رأيت بعينى رأسى أنهن يؤمن بأشياء تافهة لا تساوى شيئاً ... ومنحنى هذا الاستخفاف بهن قوة جديدة جعلتنى أعود إلى البيت وأنا أسير على قدمين ثابتتين ، واستطعت أن أشد قامتى وأنا أقف أمام أمى بشعرى القصير . . .

صرخت أمى صرخة عالية وناولتنى صفعة حادة على وجهى . . . ثم تلتها صفعات وصفعات . . . وأنا أقف كما أنا . . .

كأنما تجمدت . . . كأنما جعل منى التحدى قوة لا يهزها شىء . . .

كأنما جعل منى انتصارى على أمى جسماً صلباً لا يحس بالصفعات . . .

كانت يد أمى ترتطم بوجهى ثم ترتد عنه كأنما هى ترتطم بصخرة من الجرانيت . . .

كيف لم أبك ؟ أنا التى كانت تبكينى « الشخطة » الواحدة أو الصفعة الخفيفة ؟

لكن دموعى لم تسقط . . . عيناى مفتوحتان تنظران فى عينى أمى

فى جرأة وقوة . . .

ظلت أمى تصفعنى . . . ثم تهاوت على الأريكة جالسة وهى تردد فى ذهول : لقد جنت !

أشفقت عليها حين رأيت ملامحها ترتخى فى انهزام وضعف وشعرت برغبة قوية فى أن أعانقها وأقبلها وأبكى بين ذراعيها . . . وأقول لها : ليس العقل هو أن أطيعك دائماً . . .

ولكنى أبعدت عينى عن عينيها حتى لا تعرف أننى شهدت هزيمتها ، وجريت إلى حجرتى . . .

ونظرت فى المرآة وابتسمت لشعرى القصير ولبريق الانتصار فى عينى . . .

عرفت لأول مرة فى حياتى كيف يكون الانتصار . . . الخوف لا يفعل شيئاً إلا الهزيمة . . . والانتصار لا يكون إلا بالشجاعة .

زال منى الخوف الذى كنت أشعر به نحو أمى . . . سقطت عنها تلك الهالة الكبيرة التى كانت تجعلنى أرهبها . . . أحسست أنها امرأة عادية . . . وصفعاتها التى هى أقوى ما فيها لم أعد أخشاها . . . لأنها لم تعد تؤلمنى . . .

° ° ° °

كرهت البيت ما عدا حجرة مكتبى . . . وأحببت المدرسة ما عدا حصة التدبير المنزلى . . . وأحببت أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة . . .

واشتركت فى كل نشاط المدرسة . . . دخلت جمعية التمثيل وجمعية

الخطابة وجمعية الرياضة وجمعية الموسيقى وجمعية الرسم . . . ولم يكفنى ذلك بل اجتمعت ببعض زميلاتى وكونت جمعية أطلق عليها اسم جمعية الأنس . . . لماذا اخترت كلمة الأنس ؟ لم أدر . . . ولكننى شعرت أن فى أعماقى رغبة شديدة إلى الأنس . . . إلى أنس ضخم كبير لا يؤنسه شىء . . . إلى مجاميع هائلة من الناس تؤنسنى وتحدثنى وتستمع إلى وتنطلق معى إلى السماء . . .

خلت أن أى ارتفاع لن يكفينى . . . لن يطفئ تلك الشعلة المتأججة فى نفسى . . . وكرهت الدروس المتكررة المتشابهة . . . كنت أقرأ الموضوع مرة واحدة . . . واحدة فقط . . . أحسست أن التكرار يخنقنى . . . يقتلنى . . . كنت أريد شيئاً جديداً . . . جديداً . . . دائماً . . .

° ° °

لم أشعر به حين دخل إلى حجرتى و وقف إلى جوارى وأنا أجلس إلى كتابى إلا حين قال :

— ألا ترغبين فى الترويح عن نفسك قليلا .

وكنت قد قرأت طويلا وشعرت بالتعب فابتسمت قائلة :

— أريد أن أتمشى فى الخلاء .

— إلبسى معطفك وهيا بنا .

أدخلت نفسى فى المعطف بسرعة وجريت إليه . . . كنت على وشك أن أضع يدى فى يده ونطلق نجرى معاً كما كنا نفعل ونحن أطفال ،

لكن عينيَّ تعلقتا بعينيه فتذكرت فجأة السنين الطويلة التى لم ألعب فيها، ونسيت خلالها قدماى الجرى ، وتعودتا السير البطىء كالكبار . . . فوضعت يدى فى معطفى وسرت إلى جواره فى بطء . . .

وسمعته يقول :

– لقد كبرت .

– وأنت أيضاً .

– هل تذكرين أيام كنا نلعب معاً ؟

– كنت تسبقنى فى الجرى دائماً .

– وكنت تكسبين دائماً فى « البلى » .

وضحكنا طويلا . . . ودخل هواء كثير إلى صدرى فأنعشنى وجعلنى أحس أننى أسترجع بعض طفولتى المدبرة . . .

وقال : أريد أن أسابقك فى الجرى .

قلت فى ثقة : سأسبقك .

قال : لنرى . . . !

ورسمنا خطاً على الأرض . . . ووقفنا متجاورين . وصاح قائلا : واحد . . . اثنين . . . ثلاثة . . . فانطلقنا نجرى الشوط . . .

كنت على وشك أن أصل إلى النهاية قبله لكنه أمسكنى من ملابسى من الخلف فتعثرت قدمى ووقعت على الأرض ووقع إلى جوارى . . . ورفعت عينى إليه وأنا ألهث فرأيته ينظر إلى نظرة غريبة جعلت الدماء تصعد إلى وجهى . . . ورأيت ذراعه تمتد ناحية خصرى . . . وهمس فى

أذنى بصوت غليظ : سأقبلك .

انتفض كيانى انتفاضة عنيفة غريبة وتمنيت فى لحظة ومضت فى أحاسيسى كالبرق أن تمتد ذراعه أكثر وتضمنى بقوة . . . بقوة ... ولكن رغبتى العجيبة الخفية تحولت حين خرجت من أعماقى إلى غضب شدِيد . . .

وزاده غضبى إصراراً فأمسكنى بيد من حديد . . . ولم أدر من أين واتتنى هذه القوة التى جعلتنى أقذف بذراعه فى الهواء بعيداً عنى وأرفع يدى إلى فوق ثم أهوى بها على وجهه فى صفعة عنيفة. . .

* * *

تقلبت فى فراشى حائرة . . . مشاعر غريبة تجتاح كيانى . . . وخيالات كثيرة تمر أمامى . . .لكن خيالا واحداً يستقر أمام عينى . . .

ابن عمى وهو راقد على الأرض إلى جوارى وذراعه تكاد تلتف حول خصرى ونظراته الغريبة تخترق رأسى . . .

وأغمضت عينى لأسبح مع خيالى الذى راح يحرك ذراعه حتى التفت حول خصرى بقوة . . . وحرك شفتيه حتى لامستا شفتى وضغطتا عليهما بعنف . . .

ودسست رأسى تحت الغطاء . . .

أيمكن أن أصدقُ ؟ ! يدى هذه التى ارتفعت وصفعته هى نفسها يدى التى ترتجف فى يده الموهومة ؟ !

وأحكمت الغطاءَ حول رأسى لأحول بينه وبين هذا الوهم الغريب

لكنه تسرب، من تحت الغطاء إلى . . . فوضعت الوسادة على رأسى وضغطت عليه بكل قوتى لأخنق فيه ذلك الشبح العنيد . . . وظللت أضغط على رأسى حتى خنقنى النوم . . .

* * *

فتحت عينى فى الصباح حين بدّد نور الشمس الظلام بكل ما يجوس فيه من أشباح . . .

وفتحت النافذة . . . ودخل الهواء المنعش إلى صدرى فقضى على الآثار العالقة بخيالى من أوهام الليل . . .

وابتسمت فى سخرية من نفسى ، هذه النفس الجبانة التى ترتعد خوفاً منى وأنا يقظة ثم تتسلل إلى فراشى فى الظلام فتملأ السرير من حولى خيالات وأوهاماً !

* * *

انتهيت من دراستى الثانوية وكنت أولى فرقتى . . . وجلست أفكر ماذا أفعل ؟

ماذا يمكن لى أن أفعل وأنا أكره أنوثتى وأنقم على طبيعتى وأتبرأ من جسدى ؟ !

لا شيء سوى الإنكار . . . التحدى . . . المقاومة !

سأنكر أنوثتى . . . سأتحدى طبيعتى . . . سأقاوم كل رغبات جسدى . . .

سأثبت لأمى وجدتى أننى لست امرأة مثلهما . . . إننى لن أعيش

حياتى فى المطبخ أقشر البصل وأفصص الثوم . . . إننى لن أقضى عمرى من أجل زوج يأكل ويأكل . . .

سأثبت لأمى أننى أكثر ذكاء من أخى ومن الرجل ومن كل الرجال . . . وأننى أستطيع أن أفعل كل ما يفعله أبى وأكثر وأكثر . . .

٢

كلية الطب ؟ ! نعم الطب . . .

للكلمة وقع رهيب فى نفسى . . . يذكرنى بنظارة بيضاء لامعة من تحتها عينان نافذتان تتحركان بسرعة مذهلة . . . وأصابع قوية مدببة تمسك بإبرة طويلة حادة مخيفة . . .

أول طبيب رأيته فى حياتى . . .

كانت أمى ترتجف من الخوف وتتطلع إليه فى ضراعة وخشوع . . وكان أخى ينتفض من الهلع . . . وكان أبى راقداً فى الفراش ينظر إليه فى استجداء واسترحام . . .

الطب شىء رهيب . . . رهيب جداً ! . . . تنظر إليه أمى وأخى وأبى نظرة احترام وتقديس .

سأكون طبيبة إذن . . . سأتعلم الطب . . . وسأضع على وجهى نظارة بيضاء لامعة . . . وسأجعل عينى من تحتها نافذتين تتحركان بسرعة مذهلة . وسأجعل أصابعى قوية مدببة أمسك بها إبرة طويلة حادة مخيفة . . .

سأجعل أمى ترتجف من الخوف وتتطلع إلى فى ضراعة وخشوع . . . وسأجعل أخى ينتفض أمامى من الهلع . . . وسأجعل أبى ينظر إلى فى استجداء واسترحام . . .

سأثبت للطبيعة أنها بالرغم من ذلك الجسد الضعيف الذى ألبستنى

إياه . . . وبالرغم مما فى داخله وخارجه من عورات فسوف أتغلب عليه . . . وسوف أضعه فى زنزانة من حديد عقلى وذكائى . . . ولن أمنحه فرصة واحدة ليشدنى إلى صفوف النساء العجماوات .

• • •

وقفت فى فناء كلية الطب أتلفت حولى . . . مئات العيون تصوب إلى نظرات فاحصة لاذعة . . .

رفعت رأسى ورددت عليهم بمثل سهامهم . . .

لماذا ينظر إلىّ الطلبة فأغض طرفى ؟ لماذا يرفعون رءوسهم وأطرق رأسى ؟ لماذا يدبون على الأرض فى كبرياء وثقة وأنا أتعثر فى خطاى ؟ أنا مثلهم . . . وسأكون مثلهم بل سأتفوق عليهم . . .

فردت قامتى الطويلة عن آخرها . . . نسيت النهدين وتلاشى ثقلهما من فوق صدرى . . . شعرت أننى خفيفة وأننى أستطيع أن أتحرك بسهولة كما أشاء . . .

لقد رسمت لنفسى طريق حياتى . . . طريق العقل . . . ونفذت قرار الإعدام على جسدى فلم أعد أشعر له بوجود . . .

• • •

وقفت على باب المشرحة . . .

رائحة نفاذة عجيبة . . . جثث آدمية عارية . . . فوق مناضد رخامية بيضاء . . . حملتنى قدماى إلى الداخل فى وجل . . . واقتربت من إحدى الجثث العارية ووقفت إلى جوارها . . . جثة رجل عارية تماماً . . .

الطلبة من حولى ينظرون إلىّ ويبتسمون فى مكر وينظرون ماذا أفعل . . .

كدت أشيح بوجهى عن الجسد العارى وأجرى خارجة من المشرحة . . . ولكن لا . . . لن أفعل ذلك . . .

ونظرت إلى جانبى ورأيت جثة امرأة عارية وإلى جوارها بعض الطلبة ينظرون إليها فى جرأة وقوة . . .

سلطت نظراتى على جثة الرجل فى جرأة وقوة . . وأمسكت المشرط فى يدى . . .

° ° °

كان هذا هو أول لقاء سافر لى بالرجل والرجولة . . . فيه فقد الرجل هيبته وجلاله وعظمته الموهومة . . . نزل الرجل من فوق عرشه وارتمى على منضدة التشريح بجوار المرأة. . .

لماذا كانت أمى تضع هذه الفروق الهائلة بينى وبين أخى وتصنع من الرجل إلهاً علىّ أن أقضى عمرى كله أطبخ له طعامه ؟

لماذا يحاول المجتمع دائماً أن يقنعنى بأن الرجولة امتياز وشرف وأن الأنوثة مهانة وضعف ؟

هل يمكن لأمى أن تصدق أننى أقف وأمامى رجل عار وفى يدى مشرط أفتح به بطنه ورأسه ؟

هل يمكن للمجتمع أن يصدق أننى أتأمل جسد الرجل وأشرحه وأمزقه دون أن أشعر أنه رجل ؟

ومن هو المجتمع ؟ أليس هو رجال مثل أخى ربته أمه منذ طفولته على أنه إله ؟ أليس هو نساء مثل أمى ضعيفات عاطلات ؟

كيف يمكن لهؤلاء أن يصدقوا أن هناك امرأة لا تعرف عن الرجل شيئاً سوى أنه عضلات وشرايين وأعصاب وعظام ؟ .

جسد الرجل ! ذلك الشىء الرهيب الذى تخيف به الأمهات البنات الصغار فيحترقن بنار المطبخ لأجل إشباعه ويحلمن بشبحه الليل والنهار ! ها هو الرجل ملقى أمامى عارياً قبيحاً ممزقاً . . .

لم أتصور أن الحياة سوف تكذّب لى أمى بهذه السرعة . . . أو تنتقم لى من الرجل على هذا النحو ... ذلك الرجل الكئيب الذى نظر إلى نهدى يوماً ولم ير من كيانى شيئاً سواهما . . .

هأنذى أرد سهامه إلى صدره . . .

هأ نذى أنظر إلى جسده العارى وأشعر بالغثيان . . .

هأنذى أهوى عليه بمشرطى فأمزقه إرباً . . .

أهذا هو جسد الرجل ؟ !

يغطيه الشعر من الخارج ويمتلىء من الداخل بالعفونات ؟ يعوم مخه فى سائل أبيض لزج ويغرق قلبه فى دم أحمر غليظ ؟

ما أقبح الرجل ! من خارجه ومن داخله أشد قبحاً !

* * *

تأملت المرأة الشابة التى ترقد تحت مشرطى على المنضدة الرخامية البيضاء . . . شعرها طويل ناعم مصبوغ باللون الأحمر لكنه مغسول

بالفورمالين ... أسنانها بيضاء لامعة وفى وسطها سنة ذهبية حمراء لكن جذورها صفراء . . . أظافرها طويلة مدببة مطلية باللون الأحمر ، لكن منابتها بيضاء . . . ونهداها فوق صدرها ولكنهما ضامران متهدلان . . .

قطعتا اللحم اللتان عذبتانى فى طفولتى . . . اللتان تحددان مستقبل البنات وتشغلان عقول الرجال وعيونهم . . .

ها هما تستقران تحت مشرطى يابستين مجعدتين كقطعتين من جلد الأحذية !

ما أضحل مستقبل البنات ! وما أتفه ما يملأ عقول الرجال وعيونهم ! والشعر الطويل الناعم الذى عذبتنى أمى من أجله سنين طفولتى . . . تاج المرأة وعرش جمالها الذى تحمله فوق رأسها وتضيع نصف عمرها فى تصفيفه وتنعيمه وصباغته . . . ها هو يستقر أمام عينى فى جردل المشرحة إلى جوار عفونات الجسد وفتافيت الشحم المهملة !

* * *

أحسست بمرارة فى حلقى فقذفت بقطعة اللحم من فمى . . . ووضعت قطعة الخبز تحت أسنانى . . . وحاولت أن أمضغ . . . لكن أسنانى كانت تتحرك بصعوبة . . . حاولت أن أبلع . . . أحسست بقطعة الخبز ، وهى تحتك بجدار بلعومى وتسير فى خشونة إلى معدتى . . . أحسست بمعدتى وهى تفرز أحماضها لتهضم الخبز . . . وأحسست بأمعائى وهى تنتفخ لتستقبل الأكل . . . وشعرت بشىء يجثم على صدرى ... وتبينته فعرفت أنه قلبى ينقبض وينبسط طارداً الدم إلى شراييني ...

وأحسست بالدم وهو يزحف فى عروقى ... وأحسست بالنبضات الخافتة التى تصنعها الشعريات الدموية الدقيقة فى أطرافى ... وأحسست بالهواء وهو يدخل إلى أنفى ويجتاز حنجرتى ليملأ رئتىّ وينفخهما ... ينفخهما كالبالونة ... حتى توقف الهواء فى صدرى ... وأحسست أننى أختنق ... شفتاى لا تتحركان وذراعاى لا تمتدان وعضلات قلبى لا تنقبض...وعروقى لا تنبض بالدم . . .

آه . . . لقد مت !

وقفزت مفزوعة . . .

لا! لن أموت وأصبح جثة كهذه الجثث الممدودة أمامى فوق المناضد!

وألقيت المشرط من يدى وخرجت من المشرحة أعدو . . . ونظرت إلى الناس فى دهشة وهم يسيرون فى الشارع ويحركون أذرعهم وأرجلهم بلا تفكير . . . ويجرون وراء الأتوبيس بسهولة ... ويفتحون أفواههم ويحركون شفاههم ويتكلمون ويتنفسون ويفعلون كل شىء بسهولة شديدة .

وعادت إلىّ السكينة . . .

إن الحياة لا تزال قائمة . . . وأنا لا زلت أعيش ... وفتحت فمى عن آخره وملأت صدرى بهواء الشارع وتنفست . . . وحركت ذراعى ورجلى وسرت وسط أمواج البشر .

آه . . . ما أيسر الحياة حين يمارسها الإنسان على سجيتها .

• • •

شىء كرى صغير .قطعة بيضاوية من اللحم ترتج تحت مشرطى...

أمسكتها بيد واحدة ووضعتها فى كفة الميزان . . .

تحسست سطحها بأصابعى . . . سطح أملس متعرج . . . كملمس مخ الأرنب الذى كنت أخرجه على المائدة من جمجمته الصغيرة . . .

هل يمكن أن يكون هذا مخ الإنسان ؟ هل يمكن أن تكون هذه القطعة الطرية من اللحم هى عقل الإنسان الجبار الذى قهر الطبيعة فدخل إلى باطن الأرض وصعد إلى مدارات الشمس والقمر . . .

عقل الإنسان الذى استطاع أن يفتت الصخر وينقل الجبال ويخرج من ذرات الهواء ناراً تكفى لتدمير الأرض ؟ !

وأمسكت المشرط وقطعت المخ إلى أجزاء . . . ثم قطعت الأجزاء إلى أجزاء . . . ونظرت وتحسست وبحثت ولم أجد شيئاً . . . مجرد قطعة من اللحم الناعم التى تذوب تحت أصبعى . . .

ووضعت شريحة منها تحت الميكروسكوب ونظرت . . . ولم أر شيئاً سوى خلايا مستديرة فى داخلها نويات مستديرة أيضاً كحبات العنب . . .

كيف تشتغل هذه الخلايا فتجعل الإنسان يعى ويفهم ويحس ؟

وفتحت الكتاب ونظرت إلى الرسومات التى تشرح عمل المخ . . .

ما هذا ؟ كأنما هى رسومات جهاز معقد كالتليفزيون أو الطائرة أو الغواصة أو كأنما هى خريطة العالم . . . مئات من المراكز الرئيسية والفرعية . . . مئات من المحطات . . . ملايين من الخطوط والأعصاب . . .

وعرفت أن قطعة اللحم التى فى يدى هى التى تدير كل هذا . . . إنها تتلقى الرسالات من جميع أعضاء الجسم ثم ترسل إليها الأوامر تحملها

حبال من الأعصاب . . . كيف هذا ؟ هذه القطعة من اللحم تعطى أوامر إلى القلب والذراعين والساقين ؟

تقول للقلب تحرك وتقول للذراع انخفضى أو ارتفعى وتقول للساق امشى أو قفى ؟ كيف تدير كل هذه الشبكة المتشابكة من الأعصاب دون أن تصطدم واحدة بالأخرى . . . ؟

ما الذى يجعلها تفهم سر الرسالة التى ترسلها إليها العين أو الأنف أو الأذن أو اللسان أو أطراف الأصابع دون أن تخلط بين واحدة وأخرى ؟

ونظرت من خلال العدسات المكبرة إلى الخلية الصغيرة المستديرة ... لاشىء فيها سوى كمية ضئيلة من البروتوبلام . . .

كيف تدب الحياة فى هذه الكمية الميتة من البروتوبلام فتتحرك وتدرك وتفهم ؟

وفتحت كتب الكيمياء والطبيعة والفسيولوجيا لأبحث عن هذا السر ... الكيمياء تقول إنها قد تكون بعض التفاعلات الكيمائية التى تغير من جزئيات المادة فتنشط وتتحرك . . . والطبيعة تقول إنها قد تكون نوعاً من الكهربا التى قد تغير من ذرات المادة فتنطلق منها الحياة . . . والفسيولوجيا تقول إنها انعكاسات و إفرازات .

أخذت أقرأ وأبحث وأنقب حتى حفظت تركيب الجهاز الذى اسمه الإنسان عن ظهر قلب . . .

حفظت أسماء الأعصاب كلها وحفظت خط سيرها من مركز إرسالها فى المخ إلى محطة استقبالها فى العضو وبالعكس . . . حفظت أسماء

الشرايين والأوردة وعرفت طولها وعرضها وملمس جدرانها . . . عرفت تركيب العظام والنخاع والدم . . . عرفت كيف آكل وكيف أرى وكيف أسمع وكيف أشم وكيف أنام وكيف أحلم . . .

عرفت كيف يدق القلب ولماذا تحمر الوجنة . . . وعرفت كيف أشعر بلسع النار وكيف أبعد ذراعى عنها . . .

عرفت لماذا أعرق خجلا ولماذا تبرد أطرافى خوفاً .

القلب كالبيت . . . له حجرات ... الحجرات لها جدران اسمها عضلات . . . ولها أبواب اسمها صمامات . . .

جدران الحجرة تنقبض فينفتح بابها ويطرد الدم خارجها ثم تنبسط العضلات فتسحب الدم داخلها وينغلق الصمام . . . إن دقات القلب هى ذلك الحفيف الذى يحدثه الدم فى دخوله وخروجه من حجرة إلى حجرة . . . وهى تلك الأصوات التى تحدثها الأبواب وهى تفتح وتغلق . . .

ولكن ما الذى يجعل عضلات القلب تفهم متى يجب أن تنقبض . ومتى يجب أن تنبسط ؟ رسالة ! برقية يحملها إليها عصب من الأعصاب يتصل بمركز فى الصدر يقود إلى مركز من مراكز المخ .

وكيف يصل الدم من الرئتين إلى القلب وكيف يعود إلى الرئتين مرة أخرى لينقى ويصفى ويتطهر مما علق به من غازات الإنسان الملوثة ؟

كل هذا له نظام دقيق محكم . . . وكل تجويف فى الجسم له غلاف خاص وله ضغط ثابت معين حيث ينتقل الدم من وعاء إلى وعاء دون أن يتوقف لحظة واحدة .

لماذا أشعر بلسع النار فى أصبعى ؟ لأن أعصاب الجلد الذى يغطى أصبعى أرسلت برقية حملها عصب إلى مركز فى المخ ترجم الرسالة أنها ألم الحرق فأرسل برقية سريعة إلى عضلات ذراعى يأمرها أن تنقبض وتبعد أصبعى عن النار . . .

من منا كان يظن أن الرسائل والبرقيات تروح وتجىء بين الأصبع فى نهاية الذراع أو القدم وبين مركز المخ فى قمة الرأس فى تلك اللحظة الخاطفة التى تنقضى بين إحساسنا بلسع النار وبين إبعادنا لذراعنا عنها؟ .

أنا لا أعرق خجلا إلا بعد أن تتم المفاوضات بين مركز المخ وبين غدة العرق وتنتهى إلى أن يأمر المخ الغدة بأن تسكب دموعها .

إن أطرافى لا تبرد إلا بعد أن تصل برقية الخوف إلى المخ فيصدر أمره إلى شعيرات الجلد أن تنكمش على نفسها لتهرب ما فيها من دماء استعداداً لما قد يصيبها من جراح . . .

عرفت كيف تنتقل الصورة من العين إلى المخ ليراها ويفهمها ثم يبرق إلى العين يأمرها بالرؤية . . . عرفت كيف ينتقل الصوت من الأذن إلى المخ ليترجمه ويفهمه ثم يأمر الأذن بالسماع . . . عرفت أن النبات الحى يصبح داخل نار الفرن خبزاً ميتاً وأن الخبز الميت يتحول فى جوف الإنسان الساخن إلى نسيج حى ...

عرفت أننى حين أنام فإن جزءاً من مخى يظل ساهراً يرعانى . . . ويرعى دقات قلبى . . . ويشرف على همسات أنفاسى . . . وينظم مناظر أحلامى ... يرعانى ويحرص علىّ ألا أقع من فوق السرير وأنا

أمتطى صهوة الجواد صاعدة إلى السماء ... أو حين أسقط من طبقات الجو وأغرق فى شلالات المحيط ... و يوقظنى من قبل أن أبلل فراشى فزعاً حين يغرز وحش الغابة أسنانه فى جسدى . . .

وانفتح أمامى عالم واسع جديد . . . وشعرت بالرهبة أول الأمر ولكنى سرعان ما أوغلت فيه بنهم وقد استولى على جنون المعرفة . . . كشف لى العلم سر الإنسان وألغى تلك الفروق الهائلة التى حاولت أمى أن تضعها بينى و بين أخى .

أثبت لى العلم أن المرأة كالرجل والرجل كالحيوان . . . المرأة لها قلب ومخ وأعصاب كالرجل تماماً . . . والحيوان له قلب ومخ وأعصاب كالإنسان تماماً . . . ليست هناك فروق جوهرية بين أحد منهم وإنما هى فروق شكلية تتفق جميعاً فى الأصل والجوهر .

المرأة تحتوى فى أعماقها على رجل والرجل يخبئ فى أعماقه امرأة ... المرأة لها أعضاء الرجل بعضها ظاهر و بعضها ضامر والرجل تجرى فى دمائه هرمونات مونثة . . .

الإنسان يغلق قفص صدره على وحش غابة كاسر والحيوان فى داخله إنسان . . .

الإنسان له ذيل ... ذيل قصير مبتور فى فقرة صغيرة فى مؤخرة عموده الفقرى ، والحيوان له قلب يدق وله دموع تسيل . . .

وفرحت بهذا العالم الجديد الذى يضع المرأة إلى جوار الرجل إلى جوار الحيوان .

فرحت بالعلم وأحسست أنه إله قوى جبار عادل يعرف أسرار كل شىء فآمنت به واعتنقته . . .

* * *

لم أكن أرى منه إلا وجهه الصغير . . . وعينيه الكليلتين تبحثان فى يأس عن ملامح تعبر عن الرحمة . . . وذراعيه الرفيعتين العاريتين ترتجفان من البرد وقد اختفى جسده الصغير وتحت أقراص معدنية صلبة تخرج منها خراطيم طويلة من المطاط تنتهى فى آذان آدمية تشبه آذان الأرانب . . . وترتفع السماعات لتكشف لحظة عن أجزاء من صدره العارى ثم تهبط مكانها سماعات أخرى تضغط على ضلوع الطفل الصغير فتهبط هى الأخرى تحت ثقل الأقراص المعدنية الصلبة تلتف حولها أصابع آدمية بعضها غليظ مفرطح وبعضها ناعم طليت أظافره باللون الأحمر . . .

وسمعت صوت الأستاذ الطبيب يقول :

– تقدمى واسمعى دقات هذا القلب .

ودفعتنى الأيادى المتزاحمة على الطفل المريض . . . ووقفت أنتظر والسماعة فى أذنى حتى تخلو مساحة صغيرة من الجسد النحيل . . . وارتفعت إحدى السماعات عن صدر الطفل فرأيت مكانها دائرة حمراء محفورة فى الجلد المحتقن . . .

وترنحت السماعة فى يدى لا أستطيع أن أضعها على الجسد الملتهب وشعرت بيدى تهتز بلا وعى . . . ودفعتنى فى تلك اللحظة يد قوية

وجرفنى الزحام بعيداً عن السرير واستولى على مكانى طالب على عينيه نظارة سميكة دس سماعته بسرعة كأنه لا يبصر الدائرة المحفورة على صدر الطفل . . .

آه . . .

انطلقت الأنة الضعيفة الواهية من بين شفتى الطفل اليابستين ضاعت فى الزحام الصاخب المتلاطم ولم يسمعها أحد . . .

وشعرت برغبة فى الصراخ بأعلى صوتى . . . وأحسست بيدى تقاومان عقلى وترغبان فى الانطلاق من عقالهما وتنهالان ضرباً ولطماً على هذه الأصابع القاسية الملتفة حول السماعات تبعدانها عن صدر الطفل .

لكنى لم أستطع . . . لم أفتح فمى ولم أحرك يدى . . . لا زال فى رأسى عقل يقظ قوى يؤمن بالعلم . . . وإله العلم جبار لا يعرف الرحمة . . .

° ° °

وقف أمامى بساقيه العاريتين المعوجتين يغطيهما الشعر الكثيف ونظر إلىّ نظرة اعتراض وقال : هل أخلع السروال أيضاً ؟

ونظر إليه الأستاذ نظرة جامدة قاسية وقال آمراً : اخلع كل ملابسك !

وتطلع المريض إلىّ فى ذعر وأمسك حزام سرواله فى تردد وخوف. . . ولم يمهله الأستاذ فاندفع نحوه وشد سرواله إلى أسفل فأصبح الرجل أمامنا عارياً تماماً . . .

ارتديت القفاز واقتربت منه . . . وتململ الرجل فى خجل

واستياء . ... كيف تعريه امرأة وتفحصه ؟ ! وحاول أن يبتعد عنى لكن الأستاذ ناوله صفعة عنيفة على وجهه جعلته يستسلم لأصابعى الفاحصة كجثة ميتة .

إله العلم لا يعرف الرحمة ولا يعرف الحياء . . .

ما أقساه ! وما أشد عذابى فى محرابه !

وفقد الجسم الحى احترامه وهيبته . . . أصبح فى نظرى وتحت أصابعى كالميت سواء بسواء . . . وتفكك فى عقلى إلى مجموعة من الأجهزة والأعضاء .

* * *

الليل بارد موحش . . . والظلمة ساكنة ميتة . . . والمستشفى الكبير بأنوار نوافذه قابع فى السواد كضبع متوحش . . . وأنات المرضى وسعالهم الممزق يهتك ستائر الليل الداكنة . . . وأنا . . . أنا أقف فى نافذة حجرتى . . . وحيدة . . . أتأمل الزهرة البيضاء الصغيرة التى تتفتح إلى جوارى فى زهرية الورد . . . وألمسها بأصابعى فينتفض كيانى كأننى ميت يحس لأول مرة بملمس شىء حى . . . وأقرب أنفى منها أشم عبيرها وأشعر كأنى سجين مؤبد يضع أنفه بين أسلاك نافذته الحديدية ويشم عبير الحياة . . . وتحسست رقبتى . . . ولمست أصابعى ذراعى السماعة المعدنيتين وهما تلتفان حول رقبتى كحبل المشنقة . . . والبالطو الأبيض يجثم على جسدى وتفوح منه رائحة الكؤول والأثير وصبغة اليود . . .

آه . . .

ماذا فعلت بنفسي ؟ !

ربطت حياتي بالمرض والألم والموت . . . أصبح عملي كل يوم هو أن أكشف أجساد الناس وأرى عوراتها وأتحسس أورامها وأحلل إفرازاتها . . .

لم أعد أرى في الحياة إلا مرضى راقدين في الفراش . . . ذاهلين أو باكين أو غائبين عن الوعي . . . عيونهم كليلة صفراء أو حمراء . . . أطرافهم مشلولة أو مبتورة . . . أنفاسهم متقطعة . . . أصواتهم حشرجة أو أنين . . .

أيمكن أن أحتمل هذه الحياة إلى أمد طويل . . . طول عمري ؟ !

وشعرت بانقباض شديد يشبه الانقباض الذي يشعر به السجين المؤبد حين تختفي بارقة الأمل في الإفراج . . .

وخرجت من حجرتي . . . وجلست في الصالة الكبيرة وفتحت مجلة طبية وحاولت أن أقرأ . . . لكن أفكاري تسربت بالرغم عني إلى جناح الأطباء . . . حيث ينام زميلي الطبيب . . . وقد قسمنا نوبتجية الليل بيننا . . . هو ينام الست ساعات الأولى وأنا الست ساعات الأخيرة . . .

فكرت من حيث لا أدري أنني أجلس وحدي في منتصف الليل مع رجل لا يفصلني عنه إلا باب حجرته المغلق .

جاءتني هذه الفكرة وأنا يقظة مفتوحة العينين كوهم من أوهام الليل . . . فشعرت بالخوف . . . لا . . . ليس الخوف . . . ولكن القلق . . . لا . . . ليس القلق . . . ولكن الرغبة . . . لا . . . ليست

الرغبة . . . ولكنه شعور مزعج غريب أرغم عينى على اختلاس النظر إلى الباب المغلق من حين إلى حين .

* * *

دق جرس التليفون إلى جوارى وجاءنى صوت الممرضة النوبتجية يدعونى إلى إغاثة مريضة . . .

انقضت لحظة خاطفة ووجدتنى أقف فى عنبر من عنابر المستشفى بجوار سرير أبيض ترقد عليه المريضة . . . وكانت عروساً شابة . . .

وضعت السماعة على صدرها وسمعت صوت دقات قلبها . . . كانت صمامات قلبها مثقلة بتلك الألياف والأنسجة التى تراكمت عليه بفعل الروماتزم ، وأصبحت تحدث أصواتاً نشازاً لاتتفق مع ذلك النغم السابق الذى كنت أسمعه لدقات القلب السليم . . .

غلظت الصمامات وضاعت مرونتها فعجزت عن أن تغلق حجرات القلب بإحكام فأصبح الدم يتسرب منها فى خرير يشبه خرير الساقية الخربة . . .

ونظرت إلى المرأة الشابة . . . و رأيت بريق الأمل فى عينيها وقالت لى فى فرحة ؛ ماذا أسميه ؟ إنه أول ابن لى .

قلت لها وأنا أخفى عينيها بقناع التخدير : لاأدرى . . . إننا لانعرف بعد هل سيكون ولداً أم بنتاً ؟

ومرت لحظات . . . لحظات رهيبة . . . ورأيت شعر الطفل الأسود الناعم يطل من الظلام إلى النور يحوطه فكا العلم المعدنيان الصلبان . . .

ووضعت السماعة على قلب المرأة إن قلبها يناضل ويئن . . . والدم يخر خريراً ضعيفاً والصمامات تصفق تصفيقاً شديداً . . . ثم رأيت الطفل يندفع إلى الخارج بقوة ويصرخ صرخة عالية وتهلل وجهى فى فرحة ودهشة وأنا أرى الإنسان وهو يفتح عينيه الصغيرتين لأول مرة فى حياته ويرى العالم الواسع .

لكنى أفقت بعد لحظة على سكون رهيب كسكون القبور . . . ضاع خرير الدم وتوقفت الصمامات عن التصفيق . . . ونظرت إلى المرأة . . .

كان وجهها صامتاً بارداً كتمثال من الجرانيت . . . وكان صدرها هامداً لا يعلو ولا يهبط كصندوق من الخشب . . .

ماذا حدث ؟

لقد كانت منذ لحظات تتكلم وتتحرك وتتنفس !

وأسرعت أستنجد بكل ما يعرفه الطب لانتشال حياة الإنسان من براثن الفناء . . .

حقنت فى وريدها المحاليل والمنبهات . . . دفعت إلى أنفها الهواء والأكسوجين . . . استعنت بالتنفس الصناعى لأحرك رئتيها . . . غرست فى قلبها إبرة طويلة ليتحرك . . . فتحت صدرها وأخذت أدلك القلب لتعود إليه الحياة . . . نفخت فى فمها ولطمتها على وجهها لتحس . . . ولكن لا . . . لا شيء يجدى . . . لا طب ينفع ولا علم يستطيع . . . كل شيء عاجز . . . عاجز عن أن يجعل هذا الجفن الصغير المغمض يرتفع عن العين مرة واحدة . . . واحدة فقط .

وتأملت المولود الصغير وهو يرفس بقدميه بين يدى الممرضة ويبكى ويصرخ . . .

أليس هذا عجيباً ؟ عجيباً جداً ؟ . . . أن تخرج هذه القطعة الإنسانية الحية من هذا الجسد الميت الجامد الراقد على هذه المنضدة المعدنية الباردة ؟

وأمسكت رأسى بيدى . . . وتهاويت على مقعد بجوارى . . .

لماذا يعجز العلم ؟ ذلك الإله الجبار الذى حنيت له رأسى ؟ لماذا يعجز عن أن يفسر لى كيف تفسد صمامات القلب بفعل الروماتزم ؟

كيف توقف قلب المرأة الشابة إلى الأبد ؟ كيف ولد طفل حى من جسد امرأة تموت ؟ كيف تدب تلك الشرارة الصغيرة من الحياة فى المادة الميتة ؟ كيف تندلع الحياة وكيف تنطفئ ؟ من أى عالم يخرج الإنسان وإلى أى عالم يذهب ؟ ! . . .

خرج الصراع الذى فى أعماقى من نطاق الرجولة والأنوثة إلى الإنسانية جمعاء . . .

رأيت الإنسان تافهاً بالرغم من عضلاته وخلايا مخه وتعقيدات شرايينه وأعصابه .

ميكروب صغير لا يرى بالعين يدخل مع الهواء إلى أنفه فيأكل خلايا رئتيه أكلا . . .

فيروس مجهول يصيبه من حيث لا يدرى فيجعل خلايا كبده أو طحاله أو أى شىء آخر تتكاثر بجنون وتلتهم كل ما حولها التهاباً . . .

قطرة صغيرة لزجة تنتقل من إحدى لوزه فى الحلق لتصل إلى قلبه فتشل حركته . . .

نقطة دم واحدة يصيبها التجلط فى إحدى خلايا مخه فيرقد فى الفراش بلا حراك .

شكة إبرة رفيعة فى أصغر أصبع من أصابعه تفقده السمع والبصر والكلام . . .

فقاعة صغيرة من الهواء تتسرب إلى دمه صدفة فيصبح جثة هامدة كجثث الخيول والكلاب تتعفن وتتحلل

هذا الإنسان المغرور الجبار . . . الذى لا يكف عن الحركة والضجيج والتفكير والابتكار ... هذا الإنسان يحمله على الأرض جسد بينه وبين الفناء شعرة رفيعة جداً ... إذا قطعت . . . ولا بد لها أن تقطع ... فما من قوة فى العالم تستطيع أن توصلها . . .

نزل العلم من فوق عرشه ووقع أمامى صريعاً عارياً عاجزاً كما وقع الرجل من قبل . . .

وتلفت حولى حائرة قلقة . . .

لقد حطم العلم إيمانى القديم ولم يهدنى إلى إيمان جديد .

وأدركت أن طريق العقل الذى عاهدت نفسى أن أسلكه طريق ضحل قصير فى نهايته سد كبير . . .

وفتحت عينى . . . ترى ماذا أفعل ؟

هل أعود أدراجى أم أتكور إلى جوار هذا السد وألتصق به وأحتمى

فيه ؟ ولم يكن لى مجال للاختيار . . . فقد أسلمنى التحدى والمقاومة إلى نوع من القوة والإرادة لم أستطع معهما أن أتكور إلى جوار شىء أو ألتصق بشىء أو أحتمى فى شىء . . . فما بالك إذا كان هذا الشىء سداً كبيراً ليست له منافذ .

ووجدت قدمى تتجهان بى إلى طريق جديد .

* * *

٣

حزمت متاعى القليل وركبت القطار ليحملنى بعيداً عن المدينة . . . بعيداً عن أساتذة العلم ومعامله . . . بعيداً عن أمى وأهلى . . . بعيداً عن الرجال والنساء على السواء .

وفى إحدى القرى النائية الهادئة اتخذت لنفسى مسكناً صغيراً . . .

جلست فى شرفة بيتى الريفى أنقل بصرى من الحقول الخضراء الفسيحة الآمنة إلى السماء الزرقاء الصافية . . . وأشعة الشمس الدافئة تسقط على جسدى الممدود على الأريكة المريحة . . . وتمطيت وتثاءبت فى تكاسل لذيذ . . .

لأول مرة أجلس وحيدة مع نفسى . . . وأحسست أننى أخلع عن نفسى كل أثوابها التى تراكمت عليها طوال السنين الماضية من حياتى . . . ووقفت نفسى أمامى عارية . . . عارية تماماً . . . وبدأت أتفقدها وأتحسسها . . . وأكشف عليها كشفاً دقيقاً . . .

لم أمسك المشرط فى يدى . . . ولم أضع السماعة فى أذنى . . . ولكنى تجردت من كل شىء . . . تجردت من علمى وطبى . . . وتجردت من السنين التى عشتها . . . من الناس الذين رأيتهم وعرفتهم . . . من الصراعات التى عاصرتنى وأسلمتنى إلى ذلك السد الهائل الذى وقف فى طريق تفكيرى . . .

وتجردت من تفكيرى أيضاً . . . وبدأت أحس . . .

لأول مرة فى حياتى أحس دون أن أفكر . . . أحس بوقع الشمس الدافئة على جسدى . . . أحس بتلك الخضرة الآمنة الجميلة التى تكسو الأرض . . . أحس بتلك الزرقة العميقة الفاتنة التى تغلف السماء .

لأول مرة فى حياتى ألتقى بالطبيعة وجهاً بوجه . . . ولأول مرة أرى لها وجهاً جميلا ساحراً لا يفسده شىء . . . لا يفسده ضجيج المدينة الأجوف . . . ولا تفسده أنوثة المرأة الذليلة الأسيرة . . . ولا رجولة الرجل المغرورة المتغطرسة . . . ولا ثرثرة العلم القاصر العاجز . . .

أيقنت أن الطبيعة إله جبار جميل يحاول الإنسان الضئيل المغرور أن يلبسه أثواباً رخيصة قبيحة لمجرد أن يرضى غروره ويشعر أنه يفعل بعمره القصير شيئاً . . . أى شىء .

وأحسست أن قلبى يخفق . . . وأن خفقاته تملأ نفسى بشحنات غريبة من العواطف والمشاعر . . .

• لأول مرة يخفق قلبى فأحس دون أن أفكر . . . دون أن يشتغل عقلى ويرسم عضلات القلب وشرايينه ويزن كميات الدم التى تندفع منه . . .

أصبحت لخفقات قلبى لغة جديدة لا يستطيع أن يفسرها العلم أو الطب . . . لغة أفهمها بأحاسيسى الغضة البكر ولا أستطيع أن أفهمها بعقلى المجرب العجوز .

أحسست أن العاطفة أكثر ذكاء من العقل وأكثر رسوخاً فى قلب الإنسان وأكثر اتصالا بتاريخه البعيد وأكثر صدقاً وتجاوباً مع طبيعته وبشريته

وتمددت على الأريكة أكثر . . . فردت ساقى عن آخرها فاستسلمت

لعاطفتى الدافئة الجديدة تدغدغ جسدى .

وتنبهت . . . ها هو جسدى الذى حكمت عليه يوماً بالإعدام. . . جسد المرأة الأنثى الذى ذبحته ذبحاً عند قدمى إله العلم والعقل . . . ها هو جسدى تدب فيه الحياة من جديد .

واكتشفت أننى ضيعت عمرى الذى فات فى صراع ليس له أرض . . . ضيعت طفولتى وصباى وفجر شبابى فى عراك عنيف . . . ضد من ؟ ضد نفسى . . . ضد إنسانيتى . . . ضد غريزتى . . .

من أجل ماذا ؟ لا شىء . . . هأنذى الآن أترك كل شىء وابدأ من جديد . . . أبدأ من أول الحياة . . . أبدأ من الأرض البسيطة البدائية التى تنبت من تلقاء نفسها الحب والقمح . . . أبدأ من الطبيعة البكر التى تغلف الأرض منذ ملايين السنين . . . أبدأ من الإنسان الريفى الساذج الذى يأكل النباتات من الأرض ويمارس غريزته تحت الشجر ويأكل ويشرب ويلد ويمرض ويموت دون أن يسأل لماذا أو كيف ؟

ابتسمت . . . ثم ضحكت . . . ضحكت بصوت عال سمعته بأذنى . . .

كانت الضحكة تتقلص على شفتى وتموت دون أن أسمع لها صوتاً... فقد كانت أمى تقول لى دائماً إن البنت يجب ألا تضحك بصوت عال سمعه الناس .

وفتحت فمى عن آخره ورحت أضحك وأقهقه . . . ودخل الهواء إلى صدرى. هواء نقى نظيف ليس فيه دخان وليس فيه كربون وليس فيه



علوم الطب وليس فيه آداب المجتمع .

هواء لا يهمنى تركيبه ولا مضمونه ولكنى أحس أنه هواء منعش يرطب جوفى الساخن . . .

واستسلمت لأشعة الشمس وتركتها تسقط على جسدى . . . أشعة نقية صافية لا تشوهها تحاليل العلم إلى أشعة بنفسجية أو حمراء حارقة أو غير حارقة .

وجاء الرجل الريفى الطيب الساذج يحمل صينية الأكل . . . فطير مشلتت وقشدة وزبدة وبيض . . . وأكلت بشهية تشبه شهيتى وأنا طفلة قبل أن أبلغ التاسعة من عمرى . . . نسيت تعاليم أمى عن كيف تأكل البنت . . . ونسيت تحذيرات الطب من القشدة والزبدة . . . وملأت فمى بالطعام على آخره . . . شربت الماء البارد من الكوز الفخارى بصوت عال . . . وسقط الماء من بين شفتى وبلل ملابسى . . .

أكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت ثم تركت الأريكة الساخنة وتمددت على الأرض الرطبة . . . ووضعت وجهى على التراب ورحت أشم باطن الأرض وأنتشى بذلك الإحساس الدفين أننى من الأرض وإلى الأرض .

وهبت نسمة رقيقة رفعت الرداء عن ساقى . . . ولم يصبنى ذلك الذعر القديم الذى كنت أحس به حينما تتعرى ساقى .

كيف استطاعت أمى أن ترسب فى نفسى ذلك الإحساس البغيض بأن جسدى عورة ؟ إن الإنسان يولد عارياً ويموت عارياً ، وما تلك

الأثواب التى يلبسها إلا زيف يحاول أن يغطى به حقيقته .

وتركت الهواء يرفع عنى أرديتى . . . وأحسست فى تلك اللحظة أننى ولدت من جديد وولدت معى عاطفتى . . . ولدت لتوها حقًّا ، ولكنها ولدت عملاقاً جباراً يريد أن يعيش ويطالب بحقه فى أن يعيش . . .

• • •

سمعت صوت طرق شديد على باب بيتى فى منتصف الليل. . . ورأيت بعض الفلاحين يحملون رجلا عجوزاً مريضاً . . .

فتحت لهم بابى وارتديت معطفى الأبيض ووضعت السماعة على صدر المريض . . .

اختلط فى أذنى دقات القلب بصوت أنين فرفعت عينى إليه . . . ورأيت عينى الرجل تتعلقان بعينى وتتشبثان بهما كغريق على وشك الموت يتطلع إلى طوق النجاة .

وكأنما نسيت الطب . . . كأنما لم أكشف على مريض قبل اليوم . . . كأنما أرى لأول مرة فى حياتى عينى إنسان يتعذب . . . كأنما أسمع لأول مرة صوت الأنين .

كيف كنت أكشف على المرضى كل تلك السنوات التى مضت ؟ كيف استطاع أساتذة الطب أن يوهمونى أن المريض ليس إلا كبداً أو طحالا أو مجموعة من الأمعاء أو المصارين ؟ كيف جعلونى أنظر فى العيون فلا أرى نضارتها وأصوب إليها كشافى الكهربى وأقلب جفونها

بأصابعى ؟ كيف جعلونى أفتح حلوق الناس وأنظر فيها ولا أسمع الأنين ؟

وأحسست برجفة عنيفة تهز كيانى .

لأول مرة فى حياتى أحس أن المريض إنسان كامل . . . كل لا يتجزأ . . .

لأول مرة تخترق نظرات التعب والمرض سطح عينى وتدخل إلى نفسى . . .

لأول مره يجتاز صوت الأنين المسافة بين أذنى وقلبى . . .

ووقفت أمام المريض كالمشدوهة . . . عيناى مشدودتان إلى عينيه . . . وأذناى مرهفتان تلتقطان همسات أنينه الخافت وروحى خرساء ترقب مشهد عذاب الإنسانية العجيب . . . وعقلى صامت متوقف يستوعب معنى الحياة الجديد .

ووضعت يدى على قلبى وأسندت رأسى إلى الحائط . . .

شىء فى العينين الفاترتين اليائستين يجعل قلبى يتمزق . . . شىء فى الأنين الخافت يجعل نفسى تخور . . . شىء غريب لم أعرفه من قبل . . . لم أحسه . . . لم أعانيه . . .

الألم ؟ ! نعم الألم . . .

لأول مرة فى حياتى أتألم . . . شعور أليم . . . . . ولكنه عميق . . . عميق . . . نفذ إلى طبقات نفسى البعيدة حتى بلغ مجال اللذة . . .

تألمت ولكنى شعرت بلذة الألم . . . شعرت بلذة إنسانيتى وهى تمارس إمكانياتها المعطلة وتستكشف أبعادها المجهولة . . .

وكأنما شرب كيانى إحساسى باللذة عن آخره . . . وكأنما امتصت روحى إحساسى بالألم كله . فأحسست بدوار شديد وتهاويت على مقعد إلى جوارى وأغمضت عينى . . . و . . . وبكيت . . . بكيت كما لم أبك أبداً . . . كأنما لم تعرف عيناى الدموع . . .

انهمرت دموعى الساخنة المكبوتة كسيل عاصف كاسح . . . وتركت العنان لدموعى . . . لم أحاول أن أقف فى طريقها . . .

فلأبك كما تشاء عيونى . . . ولأغسل عقلى من ذلك الغبار الكثيف الذى تراكم عليه ولأزح عن قلبى تلك الغشاوة المعتمة العازلة . . . ولأطلق سراح روحى من قلب تلك الزنزانة الحديدية القاتلة . . .

واستسلمت للألم . . .

وأفقت على صوت . . . صوت ضعيف خائر ولكنه صوت دافىء . . سمعته يقول : لا تبكى يا دكتورة . . . أنا بخير . . .

وفتحت عينى ونظرت إليه . . . فرأيت على وجهه ابتسامة . . . ابتسامة هادئة واهنة ولكنها تحمل فى ثناياها العطف والحنان . . .

كأنما هو الذى يحنو علىّ . . . كأنما هو الذى يريد أن يأخذ بيدى ويعطينى من عنده . . . كأنما هو الذى يملك العلم والصحة والقوة وأنا لا أملك شيئاً . كأنما تضاءلت علة الجسد إلى جوار علة الروح فأحس أنه الطبيب وأنا المريضة .

لم أكن أتخيل فى تلك اللحظة التى فقدت فيها إيمانى بالإنسان وأيقنت أن فقاعة هواء أقوى منه ومن حياته أننى سأعود أومن به من جديد .

لم أتخيل أننى أفقد إيمانى بالإنسان وأنا وسط المدينة الباهرة بحضارتها ومبانيها وطائراتها وصواريخها ، ثم أعود أومن به فى كهف مهجور مظلم .

لم أتخيل أننى أفقد إيمانى بالإنسان وأنا بين أساتذة الطب وأئمة العلم ثم أعود فأومن به على يد رجل ريفى عجوز مريض لا يملك إلا جلبابه وابتسامته . . .

ابتسامة صغيرة انفرجت عنها شفتان يابستان ولكنها كانت تحمل فى طياتها معنى الحياة بأسرها . . . ذلك المعنى الذى يضيع من الناس فى الزحام . . . ذلك المعنى الذى يضل عنه العلم وسط ضجيج الآلات ويقصر عن تفسيره العقل . . . الحب . . .

حب الحياة بكل ما فيها من لذة وألم . . . من صحة ومرض . . . من مجهول ومعلوم . . . من بداية ونهاية . . .

الحب ؟ !

خفق قلبى للكلمة الجديدة . . . وسرت الرجفة فى أوصالى . . . ودب الحنين فى جسدى واندلع اللهيب فى قلبى . . . .

° ° °

كيف يمكن لى أن أعيش الآن ؟

أنا الطفلة النهمة بعواطفى البكر وأنا الطبيبة المجربة بعقلى العجوز ؟

خمس وعشرون سنة مضت من عمرى دون أن أشعر لحظة واحدة

أننى امرأة ! دون أن يخفق قلبى مرة واحدة لرجل ! دون أن تمس شفتى تلك الأعجوبة التى اسمها القبلة ! دون أن أعرف تلك الفترة الملتهبة من عمر الإنسان . . . المراهقة .

ضاعت طفولتى فى صراع ضد أمى وأخى ونفسى . . . والتهمت كتب العلم والطب مراهقتى وفجر شبابى . . . وهأنذى الآن طفلة فى الخامسة والعشرين من عمرها . . . طفلة تريد أن تجرى وتلعب وتنطلق وتحب . . .

• • •

حزمت متاعى القليل وركبت القطار ليحملنى بعيداً عن نفسى . . . لقد تعرفت عليها وعرفتها ولم أعد بحاجة إلى أن ألتصق بها ذلك الالتصاق الشديد الذى يفصلنى وإياها عن الحياة . . . الحياة التى التقطت جوهر معناها من تراب الأرض كما تلتقط الحمامة بمنقارها حبة القمح . . . الحياة التى أصبحت أحبها بكل خلية من كيان روحى وجسدى وأحس برغبة عارمة فى أن ألتصق بها التصاقاً شديداً . . .

كيف لى بعد كل هذا أن أغلق نفسى داخل تلك العزلة الموحشة ؟

كان لابد أن أعود . . . وعدت . . . عدت إلى بيتى وأهلى وعملى وعيادتى . . . فتحت ذراعى للحياة وعانقت أمى ، ولأول مرة أحس أنها أمى . . . وعانقت أبى وفهمت معنى بنوتى . . . وعانقت أخى وعرفت شعور الأخوة . . . و . . . وتلفت حولى أبحث عن شىء . . . شىء لازال ينقصنى . . . عن أحد لا زال غائباً عنى . . . من هو ؟

أعماقى تناديه . . . وروحى تهتف به . . . من هو ؟ من ؟ !

* * *

حنين جارف عنيف يهز روحى وجسدى . . . حنين روح ظامئة للحب أطلق العقل سراحها . . . حنين جسد بكر انطلق لتوه من زنزانته الحديدية . . .

ترى ماذا يكون اللقاء بين المرأة والرجل ؟ !

الليل أصبح طويلا . . . والأوهام والخيالات تعشش كل ليلة حول سريرى . . .

ذراع طويلة قوية تلتف حول خصرى . . . ووجه رجل يقترب منى . . . له عينان تشبهان عينى أبى . . . وله شفتان تشبهان شفتى ابن عمى . . . ولكنه ليس أبى وليس ابن عمى .

ترى من يكون ؟

أحاديث البنات فى المدرسة تطفو على سطح ذاكرتى . . . التنهدات . . . الشهقات . . . أحلام المراهقات . . .

كأنى لم أشرح جسد الرجل . . . كأنى لم أعريه . . . كأنى لم أر قبحه وبشاعته . . . .

هل نسيت ؟ . . . لا أدرى . . . ولكنى نسيت . . . وعاد إلى الجسد الحى سحره وغموضه . . . كيف نسيت ؟ ! . . . لعل أنوثتى خرجت من زنزانتها عنيفة جامحة طوحت فى طريقها بكل ذكريات العقل . . . أو لعل حنين روحى الجارف نزع من مخيلتى صور الجسد

القبيحة . . . أو لعل انتفاضة القلب القوية نفضت علوم الطب عن رأسي . . .

والصباح لم يعد يطلع . . . ودفء السرير أصبح لهيباً . . . وأوهام الليل لم يعد يبددها نور .

* * *

٤

دق جرس التليفون بجوار رأسى ففتحت نصف عينى ونظرت فى الساعة . . . كانت الثانية صباحاً . . . ورفعت السماعة فى كسل وجاءنى صوت ملهوف يقول :

– انقذى أمى من الموت يا دكتورة .

قفزت بسرعة من السرير الدافئ وارتديت معطفى وخطفت حقيبتى الصغيرة المعدة لحالات الإسعاف السريع وركبت عربتى وانطلقت إلى بيت المريضة .

وضعت السماعة على قلبها . . . فسمعت دقات ضعيفة خائرة . . . دقات قلب عجوز أصابه الوهن والشيخوخة وقد أوشكت الحياة أن تفلت منه .

خلعت السماعة وتلفت حولى . . . وتنبهت إلى وجود رجل طويل واقف إلى جوارى فى عينيه نظرة قلق شديد .

وسألنى : حالتها خطيرة يا دكتورة ؟

وخرجت من الحجرة دون أن أرد عليه فخرج ورائى . . . ووقفت فى صالة البيت فوقف أمامى وسألنى مرة أخرى فى لهفة شديدة : حالتها خطيرة يا دكتورة ؟

وقلت له فى هدوء : لا . . . ليست خطيرة . . . إنها تموت فقط .

وحملق فى فزع ودهشة وقال : تموت ؟ لا ! لا يمكن !



وأمسك رأسه بيديه وتهاوى على مقعد إلى جواره وأخذ يبكى بصوت مكتوم .

انتظرته حتى فرغ من نشيجه ورفع عينيه إلىّ وقلت له :

— كل الناس يموتون .

— ولكنها أمى يا دكتورة ؟

— لقد أدركتها الشيخوخة ومن غير الطبيعى ألا تموت .

وجفف عينيه فمددت يدى لأصافحه وأنا أقول :

— دعها فى حجرتها تودع حياتها فى هدوء .

وغلبته دموعه مرة أخرى ففتحت الباب وخرجت .

* * *

كنت أجلس فى مكتبى وبين يدى كوب الينسون الدافىء الذى يصنعه التمورجى لى بمجرد أن يخرج من العيادة آخر مريض. وأصابعى المتعبة تلتف حول الكوب تلتمس من دفئه بعض الراحة والاسترخاء. ووجهى المرهق يقترب من البخار المتصاعد من الكوب لأشم الينسون الذى أحب رائحته أكثر من مذاقه . . . حين دخل التمورجى وأعلن عن وجود رجل يريد مقابلتى . . .

ودخل الرجل. . . وعرفته . . . فوقفت وصافحته وجلس أمامى . . . ولمحت الربطة السوداء حول عنقه فقلت له : البقية فى حياتك .

قال وهو مطرق : أشكرك يا دكتورة .

وظل مطرقاً لحظة طويلة فأمسكت كوب الينسون وأخذت منه رشفة

ورفع عينيه ونظر إلى الكوب فى استطلاع فسألته : أتشرب كوباً من الينسون ؟

ونظر إلىّ مندهشاً وقال : ينسون ؟

وضحكت لدهشته فابتسم وقال : جئت لأشكرك .

— لم أفعل شيئاً .

— نزلت من بيتك فى هذا الوقت المتأخر .

— إنه واجب الطبيب .

— قلت لى الحقيقة .

— الحقيقة التى لا يمكن إخفاؤها .

— إنه شىء مؤلم جداً .

ولم أرد . . . ونظر إلىّ لحظة ثم قال :

— ألا تتألمين لمنظر الإنسان وهو يموت ؟

— هذا هو أخف ألم فى حياتى .

— وما هو أقسى من الموت ؟

— المرض الذى ليس له دواء . . . العجز الذى ليس له شفاء . . . التشويه الذى يصيب الإنسان فى جسده أو عقله .

— هل رأيت كل هذا ؟

— هذه حياتى وحياة كل طبيب .

— اعذرينى يا دكتورة . . . أنا لا أتعامل مع الإنسان الذى هو معرض للمرض والموت . . . إنى أتعامل مع الصخر .

– مهندس ؟

– نعم .

وسكتنا لحظة ثم قلت له :

– أنت لم تعرف الألم .

– أول مرة فى حياتى أرى إنساناً يموت . . . وأول مرة فى حياتى أبكى . . .

هذا شيء فظيع ! إن الحياة قاسية . . . أشد قسوة من الصخر !

– أنت لم تعرف الحياة بعد .

نظر فى عينى وهم بأن يقول شيئاً ولكنه لم يقل . . . وخيل إلىّ أنى رأيت فى عينيه نظرة غريبة . . .

لعلها نظرة احتياج وضعف فيها طفولة وسذاجة جعلتنى أتحمس لعمل شيء من أجله . . .

ووقف ومد لى يده قائلا :

– أشكرك مرة أخرى يا دكتورة .

واستدار وسار إلى الباب ولكنه لم يخرج والتفت ناحيتى ولاحظت أنه يبذل مجهوداً كبيراً كى يقول شيئاً . . . وسمعته يقول :

– أريد أن أتحدث معك مرة أخرى ولكن . . .

وسكت لحظة ثم قال وهو ينظر بعيداً عنى :

– أعرف أن وقتك ضيق ولكن . . .

ولم أرد . . . فقال متلعثماً وهو يتفادى النظر إلىّ . . .

– هل يمكننى أن أراك مرة أخرى ؟

وتأملت عينيه . . .

فى عينيه نظرة تشغلنى . . . ولكن ملامحه لا تقنعنى . . . وهو لم ير الموت إلا موت أمه . . . ولم يعرف الألم والمرض . . .

أيمكن له أن يرضى هذا العقل العجوز المجرب ؟ . . . أيمكن له أن يثير هذه الطفلة النهمة المنطلقة بلا حدود ؟

ولكنه أول رجل تقع عليه عيناى . . .

وقلت : يمكنك أن ترانى مرة أخرى . . .

* * *

جلست إلى جواره على صخرة كبيرة من صخور الهرم وامتدت نظراتى إلى الأفق البعيد وأخذت أراقب قرص الشمس الأحمر وهو يتسلل من وراء السحب الرمادية الكثيفة وسمعته يقول :

– فيم تفكرين يا دكتورة ؟

– لماذا تنادينى يا دكتورة دائماً ؟

– ألا تحبين هذا اللقب ؟

– إنه يذكرنى بالأنين والمرض .

– إنه لقب ساحر . . . أحس وأنا أناديك به بالفخر . . . أنت أول طبيبة أعرفها .

– حقاً ؟ !

– حين طلبتك فى التليفون لتنقذى أمى لم أتصور أن صوتك هو

صوت الطبيبة وحين رأيتك تدخلين حجرة أمى لم أصدق أنك الدكتورة .

– لماذا ؟

– كنت أتصور أن الطبيبة لابد أن تكون قبيحة أو عجوزاً . . . ترتدى على عينيها نظاة بيضاء سميكة . . . وظهرها محنى من كثرة القراءة والإجهاد . . . لم أتصور أن الطبيبة يمكن أن تكون امرأة جميلة .

– لماذا ؟

– من الصعب أن تجمع المرأة بين العقل والجمال .

– لماذا ؟

– لا أدرى .

– لأنهم يربون البنت الصغيرة منذ طفولتها على أنها جسم فقط فتنشغل به طول حياتها ، ولا تعرف أن لها عقلا أيضاً يجب أن تنميه .

– لماذا يفعلون ذلك ؟

– لأن الرجل الذى يمسك بمقاليد الحياة لا يريد من المرأة إلا أن تكون حيواناً غبيا جميلا يرقد بين قدميه .

– لماذا ؟

– الرجل لا يريد أن تكون المرأة نداً أو شريكاً له ، ولكنه يريدها تابعاً له أو خادماً ، وضحك وضحكت .

ورأيته يقترب منى ويقول :

– أنا لست هذا الرجل . . . أنا أريد من المرأة أن تكون شريكتى وليست خادمتى . . . إنى فخور بعقلك . . . لا يمكن لك أن تتصورى

مبلغ سعادتى حين أدخل عيادتك وأشهد بعينى ذلك العدد الكبير من النساء والرجال الذين ينتظرون أن تمنحيهم الصحة والشفاء. ويتلهفون على رأيك وخبرتك . . . هل يمكن لامرأة لها مثل عقلك أن تحبس فى البيت لتطبخ ؟

هل يمكن لامرأة لها مثل علمك وذكائك أن تنفق حياتها فى إرضاع الأطفال مثل النساء الجاهلات بل مثل القطط والكلاب ؟ . . . لا . . . مستحيل ؟ إن هذا ظلم لك وللإنسانية جمعاء .

نفذت كلماته إلى أعماقى الثائرة فهدأتها ودخلت إلى قلبى الحائر فطمأنته . . . وأحسست أن الصراع الذى كان بينى وبين الرجل يذوب حتى آخر قطرة فيه . . .

وأسندت رأسى المرهق إلى صخور الهرم فى راحة واسترخاء . . . لماذا لم تقل أمى هذا الكلام ؟ لماذا لم يعترف المجتمع بهذا المعنى ؟

ها هو رجل يعترف به . . . هاهو رجل يعترف بعقل المرأة . . . ها هو رجل يقول إن المرأة كالرجل لها جسم ولها عقل . . . ها هو رجل يقول الكلام الذى تقوله أعماقى منذ فتحت عينى على الحياة. . .

ونظرت إليه . . أحاول أن أرى من أين تخرج هذه الكلمات الناضجة العادلة . . . من أعماقه أم من حنجرته ؟ ولم أستطع أن أرى شيئاً . . . المسافة بين أعماقه وحنجرته لم تكن موجودة . . . لعلى لم أر له أعماقاً . . . أو لعل قرص الشمس قد سقط فى تلك الهاوية السحيقة التى يسقط فيها كل ليلة فأخفت الظلال معالم الأشياء . . .

وأحسست بيديه الباردتين فنظرت فى وجهه. . . ابتسامته الهادئة المستسلمة تثير أمومتى. . . لكن نظراته الضعيفة المستجدية تخمد أنوثتى. . . لماذا ؟ هل لأنه ضعيف . . . أضعف منى ؟ . . . أم لأنه لم يعرف الألم مثلما عرفت ؟ أم لأن عينيه تفتقدان تلك القوة العميقة الخفية التى أريدها فى الرجل؟. . . أم أنه لا تزال تجرى فى دمائى أنوثة امرأة الغاب الفجة التى تعشق الرجل الذى ينتصر عليها ؟ ! . . . ولكنه يرضى شيئاً فىّ . . . لعل ضعفه يؤكد لى قوتى. . . لعل نظرة الاحتياج فى عينيه ترضى عقلى الذى يصر على التفوق . . .

° ° °

قال لى وهو يبتسم :

– ماما كانت لها نفس هذه النظرة القوية. . . ولكن عيناها كانتا خضراوين .

خرجت كلمة ماما من تحت شاربه الكث شاذة منفرة جعلت ملامحه تبدو كملامح طفل صغير على شفته العليا حشرة سوداء ميتة .

– وسمعته يقول : لماذا تنظرين إلى هكذا ؟

وقلت له : كنت تحب أمك ؟

اغرورقت عيناه بالدموع لحظة ثم قال : جدا .

ولم تهزنى دموعه . . . وقال : بعد موتها أحسست أن الدنيا فرغت .

ثم سكت لحظة وقال : ولكنى وجدتك . . . فشعرت أن الدنيا امتلأت من جديد .

— شيء غريب !

— ما هو الغريب ؟

— أن تفرغ الدنيا فى نظرك بعد موت شخص .

— كانت أمى . . . وكنت أحبها حبا شديداً . . . كانت تفعل كل شيء من أجلى . . . وأنت ؟ أما كنت تحبين أمك ؟

— كنت أحبها . . . ولكنها لم تملأ حياتى قط .

— ربما كنت تحبين أباك أكثر ؟

— كنت أحبه كما أحب أمى .

— من هو إذن الذى ملأ حياتك ؟

— لم يكن شخصاً .

— ماذا كان ؟

— لا أدرى. . . لعلها لم تمتلىء أبداً . . . أو لعلى كنت أسعى إلى تحقيق شيء .

— ما هو هذا الشيء ؟

— لا أدرى . . . لعلى أريد أن أعمل عملا عظيماً .

— علاج المرضى ؟

— لعله أكبر من ذلك . . .

* * *

— هل ترغبين فى العيش معى إلى الأبد ؟

سألنى وهو ينظر إلىّ نظرة طفل يتيم . . . فأثار أمومتى وإنسانيتى

ورغبتى العنيفة فى البذل والعطاء وأحسست أن حاجته إلىّ تشدنى إليه وتربطنى به . . . ونظرت إليه فى حنان . . .

فسألنى مرة أخرى : هل ترغبين فى الزواج منى ؟

وارتطمت كلمة الزواج برأسى فتقهقرت أفكارى إلى الوراء . . . حينما كنت طفلة ماذا كانت كلمة الزواج تعنى لى ؟ رجل له بطن كبير فى داخله مائدة طعام . . . وقد ارتبطت فى ذهنى رائحة المطبخ برائحة الزوج . . . وكرهت اسم الزوج . . . وكرهت رائحة الأكل . . .

وسألته دون أن أدرى : هل تحب الأكل ؟

ونظر إلىّ مندهشاً وقال : الأكل ؟

– نعم .

– ما هذا السؤال الغريب الآن ؟

– الرجل يتزوج ليأكل .

– من قال لك هذا ؟

– كل الناس .

– هذا خطأ .

– لماذا لم تفكر فى الزواج وأمك تعيش معك ؟

– لم تكن أمى تصنع لى الأكل فقط . . . ولكنها كانت تمنحنى كل ما أريد .

– أنت تتزوج ليمنحك أحد كل ما تريد ؟

وقال : لا . . . وكأنه يقول : نعم . . .

الرجل العجوز على رأسه عمامة بيضاء كبيرة ينظر إليه نظرة احترام بالغة ويستمع إليه . . . ولا يرانى ولا يسمعنى كأن وجودى تلاشى من أمام عينيه . . .فى يده قلم وأمامه دفتر مسطر كبير .

– كم المقدم ياسيدى البك وكم المؤخر ؟

ما هذه الألفاظ الكئيبة التى تخرج من بين شفتيه اليابستين ؟ مقدم ؟ مؤخر ؟ ! هل هو الذى سيدفع لى ليتزوجنى ؟ هو الذى لا يملك ما يمنحنى إياه ؟

ولكن الرجل المعمم لا يعرف من منا الذى يملك . . . إنه يراه رجلا . . .ويرانى امرأة . . .والرجل فى نظره هو الذى يملك . . .

ونظرت إلى الشيخ فى استعلاء وقلت له : اكتب لا شىء .

ونظر إلىّ الرجل فى استنكار شديد . . . كيف تتكلم امرأة فى حضرة الرجال !

وقال بلهجة العلماء : العقد يصبح باطلا .

وسألته : لماذا ؟

قال : الشرع أمرنا بهذا .

قلت : أنت لا تعرف الشرع .

وقفز الرجل من مقعده . . . وقفزت عمامته من فوق رأسه فأمسكها بكلتا يديه صائحاً : استغفر الله ! استغفر الله !

* * *

بلل الشيخ المعمم أصابعه بطرف لسانه وغمس القلم فى الحبر وبسمل وحوقل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وشمر كمه الواسع ثم كتب قسيمتى الزواج ومد لى يده بإحداهما وقال :

— وقعى بإمضائك هنا .

وقلت له فى عناد : دعنى أقرأها كلها أولا .

ونظر إلىّ فى غيظ وترك لى الورقة أقرأها . . .

ووقعت عيناى على كلمات غريبة تشبه الكلمات التى تكتب فى عقود إيجار الشقق والدكاكين وقطع الأرض الزراعية . . .

إنه فى يوم كذا . . . بحضورى وعن يدى أنا فلان . . . مأذون الجهة كذا . . . التابعة لمحكمة كذا . . . للأحوال الشخصية . . . تزوج فلان ... فلانة ... على صداق قدره كذا ... الحال منه مبلغ ... والمؤجل منه مبلغ ... زواجاً شرعياً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بإيجاب وقبول شرعيين صادرين من الزوج المذكور وذلك بعد تعريفهما المعرفة الشرعية والتحقق من خلو الطرفين من كل مانع شرعى ونظامى والتحقق أيضاً أن الزوجة ليس لها معاش أو مرتب بالحكومة وليس لها مال يزيد على ما ئتى جنيه بشهادة كل من فلان . . . وفلان . . .

أمسكت الورقة بكلتا يدى لأمزقها لكنه أخذها منى ورأيت فى عينيه نظرة الضعف والاحتياج التى تجعلنى أخجل من التمرد عليه وأترفع عن عصيانه وقال فى هدوء :

— إنه إجراء شكلى ليس إلا . . .

ووقعت باسمى على العقد . . .

* * *

وكأنما وقعت على شهادة وفاتى . . .

اسمى الذى تفتحت أذنى على سماعه وارتبط فى عقلى الواعى والباطن بوجودى وكيانى أصبح ملغيا . . .ووضع اسمه على غلافى . . .

وجلست إلى جواره . . . أسمع الناس وهم ينادوننى باسمى الجديد، فأنظر إليهم وإلى نفسى فى دهشة شديدة كأنهم لا ينادون علىّ أنا . . كأننى مت . . . وتقمصت روحى امرأة أخرى تشبهنى وتحمل اسماً غريباً . . .

عالمى الخاص . . . حجرة نومى . . . لم تعد حجرتى وحدى . . . وسريرى . . . الذى لم يكن يشاركنى فيه أحد . . . أصبح هو يشاركنى فيه . . . كلما تقلبت أو تحركت ارتطمت يدى برأسه الخشن أو بذراعه أو ساقه اللزجة . . . وصوت أنفاسه إلى جوارى يملأ الجو من حولى بالعويل . . . لا شىء يربطنى بهذا الرجل وهو مغمض العينين . . . لا شىء أراه فيه إلا جثة هامدة كتلك الجثث التى رأيتها فى المشرحة . . .

ولكن إذا ما فتح عينيه ونظر إلىّ بنظرته الضعيفة المستجدية التى تثير أمومتى وتخمد أنوثتى أشعر أنه طفل صغير ولدته من صلب كيانى فى مكان وفى زمان لا أدرى عنهما شيئاً . . .

* * *

– أنا الرجل .

– ما معنى أنك الرجل ؟

– إننى صاحب السلطة .

– أى سلطة ؟

– سلطة هذا البيت بكل ما فيه حتى أنت .

بوادر التمرد تظهر عليه . . . شعوره بالضعف أمامى انقلب فى أعماقه إلى رغبة فى السيطرة علىّ . . .

– لا أريد أن تخرجى كل يوم .

– أنا لا أخرج للعبث . . . أنا أعمل .

– لا أريد أن تكشفى على أجساد الرجال وتعريهم .

نقطة الضعف التى يرتكز عليها الرجل فى محاولته السيطرة على المرأة . . . حمايتها من الرجال . . . غيرة الذكر على أنثاه . . . يدعى أنه يخاف عليها وهو يخاف على نفسه . . .

يدعى أنه يحميها ليستحوذ عليها ويغلق عليها أربعة جدرانه .

– لسنا بحاجة إلى إيراد العيادة .

– أنا لا أعمل من أجل المال . . . أنا أحب عملى .

– يجب أن تتفرغى لزوجك وبيتك .

– ماذا تعنى ؟

– اغلقى العيادة .

ظن أن عملى هو الذى يمنحنى القوة التى تحول بينه وبين السيطرة علىّ . . . ظن أن تلك الجنيهات القليلة أو الكثيرة التى أكسبها كل شهر

هى التى تجعلنى شامخة . . . لم يعرف أن قوتى ليست لأنى أعمل . . . وأن شموخى ليس لأن لى إيراداً خاصا . . . ولكن لأنى لا أشعر نحوه باحتياج نفسى كذلك الذى يشعر به نحوى . . . لأننى لم أشعر باحتياج لأمى أو أبى أو أى أحد . . . لأننى لا أنتمى إلى أحد . . . وهو كان ينتمى إلى أمه ثم أصبح ينتمى إلىّ . . .

ولكنه يرى نفسه رجلا . . . فيه ملامح الرجل . . . صوته غليظ . . . وشاربه كثيف . . . الرجال يعملون حسابه . . . والنساء يختلسن النظر إلى شاربه . . . والعيال فى الشوارع والحوارى لا يستطيعون التعليق عليه بالألفاظ النابية أو قذفه بالحجارة . . .

* * *

— اغلقى العيادة .

— والمرضى ؟ والإنسانية التى ستظلم ؟

— هناك أطباء غيرك .

— ومستقبلى فى الطب ؟ وعلمى الذى دفعت فيه نصف حياتى ؟

— حياتك هى أنا .

— والكلام الذى قلته لى ؟

— لم أكن أعرف .

فتحت عينى ونظرت إليه . . . عيناه باهتتان ضحلتان . . . وكفه قاسية غليظة ، أغلظ مما كنت أتصور . . . وأصابعه غبية قصيرة ، أقصر مما كانت أتخيل . . . من هذا الرجل الغريب الذى إلى جوارى ؟

هذه الكتلة البشرية التى اسمها زوجى ؟

واقترب منى وأمسك يدى . . . وهمس فى أذنى . . . وقرب وجهه من وجهى . . . حاولت أن أنسى نظرة عينيه المتغطرسة . . . حاولت أن أنسى كلماته المتناقضة . . . حاولت أن أكذب أذنى . . . حاولت أن أكذب عينى . . . حاولت . . . حاولت . . . ولكن هيهات . . . ذاكرتى صاحية واعية تذكر كل كلمة وكل حرف . . . وعقلى يقظ . . . يقظ . . . يشدنى إلى صور من واقعه الكئيب . . . وعيناى مفتوحتان تريان أسنانه وأذنيه . . . وكانت أذناه كبيرتين مفلطحتين كأذنى الأرنب .

وابتعدت عنه . . . لكنه حوطنى بذراعيه اللزجتين هامساً فى أذنى بصوت مبحوح كئيب . . . وأبعدته عنى فى ضيق وقلت له فى غضب :

– لماذا كذبت علىّ ؟

– كنت أريد أن أمتلكك .

– مستحيل ! أنا لست قطعة أرض !

– بيدى أنا الأمر ! أنا الزوج !

ضاعت من عينيه نظرة الضعف والاحتياج فانقطع الخيط الذى كان يربطنى به . . . وبرزت من قاع عينيه الضحلتين نظرة قاسية متغطرسة . . . ليست هى نظرة الرجل القوى . . . ولكنها نظرة الرجل الضعيف حين يشعر بعقدة النقص . . . عقدة الرجل الذى يرى نفسه الطرف الأقوى بين الناس فى الشارع ثم يشعر أنه الطرف الأضعف بين جدران بيته .

• • •

جلست فى عيادتى ووضعت رأسى بين يدى واعترفت بينى وبين نفسى بالخطأ . . . نعم لقد أخطأت . . . صدقت كلام الرجل فى الظلام دون أن أرى أعماقه . . . غرتنى نظرة الضعف والاحتياج ولم أعرف أن الإنسان الضعيف يخفى تحت جلده عدداً من العقد والصفات الدنيئة التى يترفع عنها الإنسان القوى . . . نعم لقد أخطأت . . . عصيت قلبى وعقلى وطاوعت الرجل و وقعت على عقد الزواج الذى يشبه عقود الشقق والدكاكين . . .

ألم أجعله بهذا العقد الغريب صاحب السلطة علىّ ؟

ألم يجعله هذا العقد زوجى ؟

هذه الكلمة التى لم أنطقها أبداً ! زوجى ! ماذا تعنى لى كلمة زوجى ؟

هذا الجسد السميك الذى يحتل نصف السرير . . . هذا الفم الواسع الذى يأكل ويأكل . . . هاتان القدمان المفلطحتان اللتان تلوثان الجوارب والملاءات . . . هذا الأنف الغليظ الذى يؤرقنى طول الليل بالشخير والصفير . . .

ولكن ماذا أفعل الآن ؟ هل أحمل على كاهلى وزر خطئى وأعيش معه إلى الأبد . . .

ولكن كيف أعيش معه ؟ كيف أتحدث إليه ؟ كيف أنظر فى عينيه ؟ كيف أترك له شفتىّ ؟ كيف أمتهن روحى وجسدى معه ؟

لا . . . لا . . . إن الخطأ الذى وقعت فيه لا يساوى كل هذا العقاب . . . لا يساويه !

كل الناس تخطىء . . . الحياة تشتمل على الخطأ والصواب . . .

بل إننا لا نعرف الصواب إلا من خلال الخطأ . . . ليس فى الخطأ ضعف أو غباء ولكن الاستمرار فى الخطأ هو الضعف وهو الغباء . . .

° ° °

الناس يفتحون أفواههم فى دهشة واحتجاج . . .

— كيف تركت زوجها ؟ ولماذا؟

ما أجرأهم !

هؤلاء الناس الذين يسلمون لى أجسادهم وأرواحهم فأنقذها من الهلاك والموت . . . كيف لهم أن يحتجوا على شىء خاص بى ؟ بل كيف لهم أن يبدوا لى الرأى ؟ أنا التى أشير عليهم بما يأكلون وبما يشربون . . . وأشرح لهم كيف يتنفسون وكيف ينامون وكيف يعيشون وكيف يتكاثرون . . .

هل نسوا ؟ أم أنهم يظنون أننى حين أخلع سماعتى ومعطفى الأبيض أخلع معهما عقلى وذكائى وشخصيتى ؟

ما أجهلهم !

لقد ضيعت أمى طفولتى . . . والتهم العلم صباى وفجر شبابى . . . ولم يبق لى من شبابى إلا سنوات تعد على الأصابع . . . لن أضيعها ! ولن أدع أحداً يضيعها .

٥

عالمى الصغير الذى كنت أبنيه من الكراسى والعرائس وأنا طفلة صغيرة أصبح حقيقة واقعة . . . فى جيبى مفتاحه السحرى العجيب . . . أدخل متى شئت وأخرج متى شئت بلا إذن من أحد . . . أنام فى سرير وحدى بلا زوج . . . أتقلب كما أشاء من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين . . . وأتمرغ كما يحلو لى . . .

أجلس على مكتبى لأكتب أو أقرأ . . . أو لأتأمل وأفكر . . . أو لا أتأمل ولا أفكر ولا أفعل شيئاً على الإطلاق . . .

أنا حرة . . . حرة تماماً فى عالمى هذا الصغير . . . أغلق على بابى وأخلع عنى حياتى المزيفة مع الناس وأخلع معها حذائى وأتجرد من ملابسى وأتجول فى بيتى كما أشاء . . .

أنا وحدى . . . وحدى تماماً . . . فى بيتى . . . لا أسمع أصواتاً ولا أنفاساً . . . ولا أرى وجوهاً ولا أجساداً . . .

لأول مرة فى حياتى يتزاح عن قلبى عبء ثقيل . . . عبء العيش فى بيت يشاركنى فيه أحد . . .

* * *

فتحت عينى فى منتصف الليل على دقات قلبى تدب فى صدرى دبيب جيش مفلول . . . وأنفاسى تصر تحت ضلوعى صرير ساقية خربة . . . وعيناى مفتوحتان ولا تريان إلا سواداً . . . وأذناى تطنان

فى سكون رهيب ميت. . . وشعرت بالخوف . . . كأنما خفت أن يتوقف قلبى عن الدبيب . . . وتختنق أنفاسى مع الصرير . . . ويطفئ الظلام نور عينى . . .ويضيع سمعى فى الطنين . . .

وحملقت فى الظلام أمتحن بصرى . . . وأرهفت أذنى فى السكون أختبر سمعى . . . ورأيت كتلة السواد الكبيرة تتمزق إلى كتل صغيرة . . . لها رؤوس ولها قرون ولها أذناب . . .ودبت الأصوات فى السكون الميت . . بعضها همس. . . وبعضها حفيف . . .وبعضها عويل . . .

وأخفيت رأسى تحت الغطاء لأسد عينى وأذنى. . . وتلاشت الأشباح والأصوات . . . وهدأ الدبيب فى صدرى وضاع الصرير . . . وسرى دفء الفراش فى أطرافى وأوصالى فتثاءبت فى استرخاء ومددت ذراعى أتحسس النوم . . . لكن النوم لم يكن هناك . . . وعانقت ذراعى شيئاً آخر . . . له عينان تشبهان عينى أبى ولكنه ليس أبى . . . وله شفتان تشبهان شفتى ابن عمى ، ولكنه ليس ابن عمى . . . ترى من هو ؟ من ؟ .

وبدأ الطيف الذى أرق ليالى صباى يزورنى ... والليل عاد طويلا... والسرير أصبح واسعاً . . . والوحدة لم تعد ساحرة . . .

° ° °

أين أجده ؟

كيف أعثر عليه فى هذا العالم الواسع المزدحم ؟

هذا الطيف الذى تعرفه أعماقى وتعرفه .. . . هذا الرجل الذى يعيش

فى خيالى ويتربع . . .

أعرف نظرة عينيه . . . وأعرف نبرة صوته . . . وأعرف شكل أصابعه . . . وأعرف دفء أنفاسه . . . وأعرف أعماق عقله وقلبه . . . أعرف . . . أعرف . . . أعرف . . . كيف أعرف ؟ لا أدرى ! ولكنى أعرف .

ترى هل له وجود فى الحياة أم ليس له وجود على الإطلاق ؟

ترى هل سألقاه يوماً أم سأظل أنتظره إلى الأبد ؟

وهذا العملاق الراقد فى أعماقى ؟ ماذا أفعل به ؟ هل أتركه يعيش فى حرمان إلى الأبد ؟ أم أحاول أن أرضيه ؟ ولكن كيف أرضيه وهو يفضل أن يعيش فى حرمان كامل دائم على أن يرضى إرضاء مزيفاً أو ناقصاً . . . نعم . . . أريد رجلا كاملا كما فى خيالى . . . وأريد حبا كاملا كما فى أعماقى ولن أتنازل عن شىء مما أريد مهما طال بى الحرمان . . . الكل أو لا شىء . . . هذا هو مبدئى . . . لن أقبل أنصاف الأشياء أبداً . . .

قررت أن أبحث عنه فى كل مكان . . . فى القصور وفى الكهوف . . فى الملاهى وفى الأديرة . . . فى معامل العلم وفى معابد الفن . . . فى الأضواء الساطعة وفى الظلام الدامس . . . فى القمم الشاهقة وفى الحفر المنخفضة المغمورة . . . فى المدن العامرة وفى الغابات المهجورة الموحشة . . .

لماذا ينظر الناس إلىّ فى دهشة ؟ ما الذى يدهشهم هؤلاء الناس ؟

ألم يكفهم ما ضاع من عمرى ؟ وماذا هم يريدون ؟ أيريدون منى أن أضع يدى على خدى وأنتظر فى عقر دارى حتى يأتى أى رجل من أى شارع ويشترينى كما تشترى البقرة ؟

أليس من حقى الطبيعى فى الحياة أن أختار رجلى ؟

وكيف أختاره ؟

من بين النساء ؟ أم من بين صور الكتب ؟ أم أختار الرجل الواحد الذى يختارنى ؟

أليس من الضرورى أن أبحث عنه بين الرجال ؟ وكيف أبحث عنه إذا لم أنتقل هنا وهناك أنظر فى وجوه الرجال وعيونهم . . . وأسمع أصواتهم وأنفاسهم . . . وألمس أصابعهم وشواربهم . . . وأكشف عن أعماق قلوبهم وعقولهم ؟ هل يمكن لى أن أعرف رجلى فى الظلام أو من وراء الشيش أو من على بعد كيلومتر ؟

أليس من الضرورى أن أراه فى النور ؟ وأختبره وأعرفه ؟

أليس من الضرورى أن تسبق التجربة المعرفة ؟ أم أنهم يريدون منى أن أقع فى الخطأ مرة أخرى ؟

كان لا مفر لى من أن أخوض التجربة . . . أخطر تجربة فى حياة المرأة . . . تجربة اختيار الرجل . . . تجربة البحث عن الحب . . .

* * *

لم أكن أرى منه إلا عينيه . . . كانت ملامح وجهه تختفى دائماً تحت قناع الوقاية الأبيض . . . وأصابع يديه تختفى تحت القفاز الجلدى

المعقم . . . وملامح جسمه تختفى تحت رداء العمليات الواسع . . . وقدماه تختفيان فى حذاء كبير له رقبة طويلة . . . وأنفاسه تختفى فى أنفاس جهاز التخدير الذى يملأ الحجرة برائحة الأثير . . .

رأيته ينظر إلىّ خلسة . . . ولم يكن معنا فى الحجرة إلا رجل واحد فاقد الوعى من أثر المخدر يرقد على منضدة العمليات مغمض العينين وقد ظهرت أمعاؤه من فتحة كبيرة فى بطنه . . .

لماذا يختلس النظرات ؟ ممن يخاف ؟ من هذا الرجل الغائب عن الوعى أم منى أم من نفسه ؟ أم أنه تعود على أن يخاف . . . وعلى أن يختلس النظر ؟

وسمعته يقول : لماذا أنت سارحة ؟ فيم تفكرين ؟

– فى الرجل .

– أى رجل .

– هذا الرجل الذى فتحنا بطنه .

وضحك . . . ولم أر شفتيه أو أسنانه من تحت القناع الأبيض ، ولكنى سمعت ضحكته . . . ضحكة قصيرة تنم عن السخرية . . .

وسكت . . . وأخذ يعبث بأصابعه فى بطن الرجل باحثاً عن المصران الغليظ . . . وقال بعد لحظة وهو يمسك المصران بالملقط :

– لا فائدة من بتره . . . لقد أكله السرطان وانتشر فى الغشاء البريتونى . . . ونظرت إلى وجه الرجل النائم وأحسست بسكين حاد يمزق صدرى فأطرقت إلى الأرض لا بتلع دموعى فى صمت . . .

وسمعته يضحك ويقول : ألم تتعودى بعد على هذه الآلام .

– أنا لا أتعود أبداً على هذه الآلام .

ونظر إلىّ وسكت . . . وبدأنا نغلق بطن المريض فى صمت . . .
وفجأة سمعته يقول :

– هل تعرفين فيم أفكر ؟

– لا .

– أفكر فيك .

ضغط على حروف الكلمات وثبت عينيه فلم أطرق إلى الأرض
ودققت النظر فى عينيه . . .

• • •

نظر إلىّ نظرة طويلة حاول أن يودع فيها كل معانى الرغبة للمرأة . . .

وقال : المرأة بعد أن تتزوج تصبح أكثر حرية من الفتاة العذراء .

ونظرت إليه فى غضب قائلة :

– إن حريتى لا أستمدها من خلايا ضعيفة من خلايا جسدى . . .
وإن قيودى لا تنبع من خوف على عذرية واهية تمزقها خبطة عشواء
ويوصلها غرز العلم . . . قيودى أضعها بنفسى حين أريد القيود . . .
وحريتى أمارسها بإرادتى كما أفهم الحرية .

ونظر إلىّ نظرة خبيثة وقال :

– ولماذا إذن تخافين ؟

– من أى شىء ؟

– منى ؟
– أنت ؟!

ما الذى يريده منى ؟ أو ما الذى أريده منه ؟ لا أدرى . . . ولكنى أريد أن أعرف شيئاً . . . عن الرجل . . . أو عن نفسى . . . شيئاً لا زال غامضاً . . .

• • •

حملتنى قدمان ثابتان إلى باب بيته . . . وضغطت يدى الواثقة على الجرس . وابتسم ابتسامة عريضة تنم عن الرضى والانتصار وقال :

– كنت أظن أنك لن تأتى .
– لماذا ؟
– كنت أظن أنك لا تثقين فىّ بعد .
– أنا لا أثق فيك بعد

وجلست . . . فجاء وجلس إلى جوارى حتى كاد تساقه تلمس ساقى فقمت وجلست أمامه . . .

قال وعلى وجهه ابتسامة ماكرة : لماذا لا تجلسين إلى جوارى ؟

قلت وأنا أنظر مباشرة إلى عينيه : أفضل أن أجلس أمامك .

– لماذا ؟
– لأرى عينيك .

وسكت وضبطت نظراته وهى تهرب بعيداً عن عينى . . . وفكر لحظة ثم نهض ودخل إلى إحدى الغرف وعاد ومعه زجاجة طويلة وأفرغ كأساً . . .

قلت له : ما هذا ؟

قال : إن عقلك حاد كالسيف !

ونظر إلى ساقى فى شراهة وقال : أريد أن أتخلص من عقلك هذا !

عقلى حاد كالسيف ؟ ! يريد أن يتخلص من عقلى ؟ ! لماذا ؟ !

هل هى معركة ؟ ما الذى يريده هذا الرجل ؟

ورأيته يبتسم ابتسامة غريبة . . . ودققت النظر إلى ابتسامته فشعرت أنه يستعد لمعركة يريد أن يكون هو الفائز فيها . . .

معركة الرجل والمرأة . . . تلك المعركة المزيفة العجيبة . . .

تقف المرأة فيها أمام الرجل وحدها . . . ويقف الرجل فيها أمام المرأة ومن ورائه متاريس من التقاليد والقوانين والأديان . . . وسدود من التاريخ والأحقاب والأجيال . . . وصفوف من الرجال والنساء والأطفال . . . يحملون ألسنة ممدودة حادة كسنان السيوف . . . ويصوبون عيوناً مفتوحة كفوهات البنادق . . . ويفتحون أفواهاً واسعة كالمدافع الرشاشة . . .

يقف الرجل أمام المرأة مستنداً بظهره إلى العالم . . . يقبض بيده على صولجان الحياة . . . يملك الماضى والحاضر والمستقبل . . . يملك الشرف والكرامة والأخلاق وأوسمة معاركه مع النساء . . يملك الدين والدنيا . . . بل يملك تلك النطفة الصغيرة التى قد تنبت فى أحشاء المرأة عقب العراك . . . يعترف بها أو لا يعترف . . . يمنحها اسمه وشرفه أو لا يمنح . . . يحكم عليها بالحياة أو يحكم عليها بالإعدام .

وتقف المرأة أمام الرجل وقد سلبها العالم حريتها وشرفها واسمها وكرامتها

وطبيعتها وإرادتها . . . سلبها الدين والدنيا . . . بل سلبها تلك الثمرة الصغيرة التى تصنعها فى أعماقها بدمائها وخلاياها وذرات عقلها وقلبها . . .

ورأيته يبتسم مرة أخرى . . .

لماذا تبتسم هكذا يا رجل ؟هل يمكن أن تسمى هذه معركة ؟

واقترب منى ولفحت أنفاسه الساخنة وجهى وابتعدت — فجاء ورائى زاحفاً على قدميه ويديه ، فوقفت وابتعدت . . .

ما هذا ؟ لماذا ينهار الرجل هكذا أمام رغبته؟ لماذا تتلاشى إرادته بمجرد أن يغلق عليه باب مع امرأة فيرتد حيواناً أعجم يمشى على أربع ؟ أين قوته ؟ أين عضلاته ؟ أين سيطرته وزعامته ؟

ألا ما أضعف الرجل ! لماذا كانت أمى تصنع منه إلهاً ؟

ونظرت إليه . . . إلى عينيه وإلى أصابع يديه وقدميه . . . سلطت عليه كشافى الكهربى ودققت النظر إلى أعماق عقله وقلبه فرأيت أعماقاً خاوية جائعة ورأيت عقلا هزيلا . . . وقلباً مزيفاً . . .

وعرفت لماذا أراد أن يتخلص من عقلى . . . أحسست أنه لص يريد أن يختلس شيئاً من وراء عقلى . . .

ونظرت إليه فى ترفع وإشفاق . . . أشفقت عليه فانسحبت من المعركة ترفعاً منى من منازلة شخص أضعف منى .

أحسست أننى أقوى منه . . . بالرغم مما يجر وراءه من متاريس . . . وبالرغم مما يحوط نفسه به من سدود ، وبالرغم مما يدعم نفسه من أسلحة . . . شعرت أننى لست بحاجة إلى متاريس أو سدود أو أسلحة ، فإن قوتى فى

أعماق . . . فى ذاتى . . .

لو أغلقت علىّ أربعة جدران عالية مع رجل لا أريد أن أعطيه لمسة واحدة من يدى فلن أعطيه . . . وإذا أردت أن أعطى الرجل نفسى فسوف أعطيها له أمام العالم دون تلصص أو اختلاس . . .

إن إرادتى هى التى تحكمنى وليس المكان أو الزمان أو الناس . . .

ورأيته يقترب منى مرة أخرى ووضع يده على يدى فشعرت ببرودة الجليد تزحف على روحى .

لا شىء يجدى أيها الرجل فأبعد يدك الغريبة عنى . . . إن قلبى يقنع عقلى . وعقلى يقنع جسدى . ولا سبيل لإقناع أحدهم إلا عن طريق إقناع الآخر .

وأمسكت حقيبتى ووقفت . . .

وسألنى فى دهشة : هل تذهبين ؟

قلت : نعم .

قال فى دهشة شديدة : لماذا ؟

ماذا أقول له ؟ لماذا لا يفهم ؟ هل يمكن له أن يصدق ؟

هل يمكن لرجل أن يصدق أن هناك امرأة تستطيع أن تنفذ إلى داخله وتكتشف أعماقه ؟ هل يمكن له أن يصدق أن هناك امرأة تستطيع أن تخضع جسدها لقلبها وعقلها ؟

أن ينظر فى عينها ولا ترمش ؟ أن يمسك يدها ولا تهتز ؟ أن يغلق عليها معه أربعة جدران فلا تعطيه شيئاً وتتركه وتمضى قائلة : لا . . . لست

الرجل الذى أريد ؟

هل يمكن لرجل أن يدرك أن هناك امرأة يمكن لها أن تفحصه وتختبره . ثم يسقط فى الاختبار ؟

لا . . . لقد تعود الرجل على أنه هو وحده الذى يفحص المرأة ويختبرها . . . هو وحده الذى له حق الاختبار والاختيار . . .

أما المرأة فليس لها إلا أن تقبل الرجل الذى يختارها . . . رجل واحد أوحد . . . ويعيش حياته كلها يقنع نفسه أنه هو هذا الواحد الأوحد . . .

أليست المرأة مثل الرجل أيها الطبيب العبقرى الفذ ؟ هل نسيت العلم؟ أم أن عقلك منفصل عن جسدك ؟

ولكن الغرور يصنع من الرجل مخلوقاً غبيا . . .

• • •

المجتمع يرشقنى بنظرات حادة كالخناجر . . . ويمد فى وجهى ألسنة سليطة حامية مثل كرابيج الخيول . . .

كيف تعيش امرأة وحدها بلا رجل ؟ لماذا تخرج ؟ لماذا تدخل ؟! لماذا تبتسم ؟ لماذا تتنفس ؟ لماذا تستنشق الهواء؟ لماذا تتأمل القمر ؟ لماذا ترفع رأسها ؟ لماذا تفتح عينيها ؟ لماذا تدب على الأرض فى تشامخ وثقة ؟ ألا تخجل ؟ ألا تحتمى فى رجل ؟

هاجمنى الأهل والأقارب . . . وتبارى فى قذفى الأصدقاء والأحباء . . . ووقفت فى مهب الرياح أفكر . . .

منذ طفولتى وأنا أخوض سلسلة من المعارك لا تنتهى . . . وهأنذى

الآن إزاء معركة جديدة . . . معركة مع المجتمع . . المجتمع الكبير . . . ملايين الناس ومن أمامهم ومن خلفهم ملايين الملايين . . .

لماذا لا تسير الأمور فى الحياة كما ينبغى لها أن تسير ؟ لماذا لا يكون هناك إدراك وفهم للحقيقة وعدالة ؟ لماذا لا تعترف الأمهات بأن البنت كالولد ؟ لماذا لا يعترف الرجل بأن المرأة ند وشريك ؟ لماذا لا يعترف المجتمع بحق المرأة فى ممارسة الحياة الطبيعية كعقل وجسم ؟

لماذا يضيعون عمرى فى هذه المعارك ؟

وضعت رأسى بين يدى وجلست أفكر . . . هل أخوض المعركة مع المجتمع الكبير أم أخضع له وأنساق وراءه ؟ وأحنى له رأسى وأغلق على نفسى جدران بيتى وأحتمى فى رجل ككل النساء ؟

لا . . . مستحيل ! لن أخضع للمجتمع . . . ولن أنساق وراءه . . . ولن أحنى له رأسى . . . ولن أحتمى فى رجل !

سأخوض المعركة وسأحتمى فى نفسى . . . فى ذاتى . . . فى قوتى . . . فى علمى . . . فى نجاحى . . .

* * *

تركت كل شيء . . . تركت الأهل والأصدقاء . . . تركت الرجال والنساء . . . تركت الطعام والشراب . . . تركت النوم والأحلام . . . تركت القمر والنجوم . . . تركت الهواء والماء . . .وارتديت معطفى الأبيض وعلقت السماعة فى رقبتى و وقفت فى عيادتى . . .

قررت أن أناضل . . . أن أكافح . . . أن أعرق وأغرق فى عرقى . . .
قررت أن أقف أمام المجتمع على قدمين من حديد . . .

* * *

دخلت علىّ عيادتى وجسمها الصغير يرتعد من الهلع وملامحها البريئة الطفلة تلهث وتتلفت خلفها فى فزع . . . ونظراتها الحائرة المستغيثة تتطلع إلى عينى فى استجداء واسترحام .

سألتها : ماذا بك يا طفلتى الصغيرة ؟

فارتجفت كالمحمومة وأجهشت بالبكاء . . . واستطعت أن ألتقط من بين شفتيها المرتجفتين بضع كلمات ممزقة مبتورة .

خدعنى . . . ذئب . . . الصعيد . . . سيقتلوننى . . . ليس لى أحد . . . أنقذينى . . . يا دكتورة !

لم يكن معها منديل فأعطيتها منديلى . . . وانتظرتها حتى أفرغت كل ما فى قلبها الصغير من دموع وجففت عينيها وتشبثت نظراتها الفزعة بشفتىّ تتلهف على تلك الكلمة الصغيرة التى سأنطق بها فأمنحها الحياة أو أحكم عليها بالموت . . .

ونظرت إليها . . . كانت طفلة تبلغ الرابعة أو الخامسة عشر لا تزيد . . . وكانت بريئة طاهرة ضعيفة بلا معين ولا نصير . . . ولم يكن لى مجال للاختيار .

كيف يمكن لى أن أتخلى عنها وليس لها أحد سواى ؟ كيف يمكن لى أن أحكم عليها بالإعدام وأنا أومن ببراءتها واستحقاقها الحياة . . . كيف

أترك رقبتها تحت سكين أبيها وأنا أعلم أن أباها وأمها وأخاها وعمها هم أصحاب الخطيئة . . . كيف أعاقبها وحدها وأنا أعلم أن المجتمع كله مشترك فى الجريمة . . . كيف أعجب لوقوعها فى الخطأ وأنا أعلم أن كل الناس يخطئون . . . كيف لا أحميها وهى الضحية ، والمجتمع يحمى المجرم الحقيقى . . . كيف أستنكر سقوطها فى الخطأ وأنا نفسى سقطت فى الخطأ . . . أنا التى عشت ضعف ما عاشت ورأيت أضعاف ما رأت وتعلمت أضعاف ما تعلمت . . . كيف لا أبرئها وقد برأت نفسى من قبل ؟

لا بد لى أن أنقذ الطفلة المسكينة ! أنقذها من براثن التقاليد والقوانين وأنتشلها من بين أنياب الوحوش والأفاعى والجرذان والصراصير . . .

سأنقذها . . . وليصلبونى إذا عنّ لهم أن يصلبوا . . . وليرجمونى بالحجارة إذا شاء لهم أن يرجموا . . . وليسوقونى إلى المشنقة إذا لاح لهم أن يسوقوا . . . ولكنى سأقبل مصيرى وألقى حتفى وأنا راضية النفس مستريحة الضمير .

* * *

كل مآسى المجتمع دخلت عيادتى . . . كل نتائج التخفى والخداع استلقت أمامى على منضدة الكشف . . . الحقائق المرة التى ينكرها الناس جاءت وتمددت تحت يدى على منضدة العمليات . . .

وأشفقت على الناس . . .

أليس هذا الرجل الذى يذبح أخته المخطئة هو نفسه الذى يخطىء مع أخوات الرجال ؟

أليس هذا الذئب الذى يخدع الطفلة البريئة هو نفسه الأب الذى يحبس ابنته ويقيدها ؟

أليس هذا الرجل الذى يخون زوجته هو نفسه الزوج الذى يقتل زوجته دفاعاً عن شرفه ؟

أليست هذه الزوجة التى تخون زوجها هى نفسها المرأة التى تطلق الشائعات على النساء ؟

أليس هذا المجتمع الذى يذيع أغانى الحب والغرام هو نفسه المجتمع الذى ينصب المشنقة لكل من وقع فى الحب والغرام ؟

أشفقت على الناس . . . كل الناس . . . فهم الضحايا وهم أيضاً الجناة .

• • •

امتلأت عيادتى بالرجال والنساء والأطفال . . . وامتلأت خزينتى بالذهب والمال . . . وأصبح اسمى لامعاً كأسماء النجوم . . . وأصبح رأيى ينشر على الناس كأنه دستور . . .

ظهر لى من الأغراب أقارب . . . وتحول الأعداء إلى أصدقاء وأحباء . . . وتكاثر حولى الرجال كالذباب . . . وانقلب الهجوم إلى تأييد ودفاع . . . وامتلأ درج مكتبى بالتوصيات والرجوات والاستعطافات .

وجلست على قمتى العالية أنظر تحت قدمى إلى المجتمع . . .

وابتسمت له فى إشفاق . . . المجتمع ! ذلك المارد الجبار الذى يقبض على أعناق النساء ويلقى بهن فى المطابخ أو المجازر أو القبور أو الوحل ! ها هو المجتمع ملقى فى درج مكتبى ضعيفاً منافقاً مسترحماً ! ألا ما أصغر المجتمع الكبير !

جلست إلى مكتبى بعد أن خرج آخر مريض وذهب التمورجى إلى بيته . . .

جلست وحدى ونظرت إلى الساعة . . . كانت لا تزال التاسعة مساء . . . أول الليل . . . والحياة على أشدها فى الطريق . . .

ووقفت وأخذت أتمشى فى الحجرة حائرة . . . ووصلت إلى النافذة فلفحت وجهى نسمة الليل الدافئة الحالمة . . .

ونظرت إلى الشارع فرأيت الناس يسيرون متلاصقين يتكلمون ويعبسون ويضحكون . . . ونظرت إلى نفسى فوجدت أننى أطل عليهم من فوق . . . من مكان عال حقًّا . . . ولكن بعيد . . .

وأحسست ببرودة شديدة . . . كأننى أجلس على قمة عالية يكسوها الجليد . . . أنظر فوق رأسى . فلا أرى إلا السحب والسماء . . . وأنظر تحت قدمى فأرى مسافة طويلة تبعدنى عن الوديان السهلة المنبسطة . . . عن السهول المنخفضة الدافئة بأنفاس البشر وأجسادهم . . . وأرى الناس وهم يلوحون لى بأيديهم من بعيد ولكن أحداً لا يصل إلىّ . . . ويعزفون لى الألحان ، ولكن الصوت لا يصل إلى أذنى . . . ويلقون لى بالورود ولكن العبير يضيع فى الهواء . . .

ووضعت رأسي على سور النافذة . . .

ما أبرد الوحدة ! ما أقسى السكون ! ماذا أفعل ؟ هل أقفز من فوق قمتى ؟ ولكن عنقى سيدك فى الأرض دكًا . . .

هل أعود أدراجى ؟ ولكن عمرى سينقضى ولن أبلغ ما أريد . . .

انتهت المعارك وآن لى أن أجلس بلاحراك . . .

آه . . . ما أفظع الفراغ . !

لماذا قفزت فوق سلم حياتى ؟ لماذا لم أرشف كأس حياتى رشفة رشفة ؟ لماذا لم أقضم عمرى قضمة قضمة ؟ لماذا جريت شوطى قفزاً ولهثاً؟ لماذا تركت مكانى فى الصف وقفزت فوق الصفوف ؟

إن صفوف الناس تزحف فى الطريق . . . تزحف كالسلحفاة ، ولكنها ستصل يوماً . . . وإن الحياة تسير إلى الإمام . . . تسير ببطء ولكنها ستبلغ حتماً ما تريد . . . لقد انقضت ملايين السنين حتى أصبحت الهيولة هواء . . . وحتى أصبح الهواء ماء وحتى أصبح الماء جماداً . . . وانقضت ملايين أخرى حتى أصبح الجماد أميباً تتحرك وحتى أصبح للأميبا زوائد حية . . . وانقضت ملايين أخرى لتصبح الزوائد زعانف ثم لتصبح الزعانف أجنحة ثم لتصبح الأجنحة أذرعاً وذيلا . . . وانقضت ملايين أخرى ليصبح للأذرع أصابع ولينقرض الذيل ويقف القرد على قدمين اثنتين . . .

لماذا حزنت فى طفولتى لأنى لا أطير فى الجو كالحمامة ؟ لماذا ضقت بتلك الأيام الدامية التى تلوث النساء كل ثلاثين يوماً ؟ لماذا تمردت على

التاريخ والقوانين والتقاليد ؟

لماذا ثرت لأن العلم لم يكتشف سر البروتريلازم الحى ؟

سوف تنقضى السنون ويغير الزمن التاريخ والقوانين والتقاليد . . .

سوف تنقضى السنون وتكتشف الحياة طريقة نظيفة جميلة تنضج بها البنات الصغار . . سوف تنقضى السنون ويخف جسم الإنسان فيطير . . . سوف تنقضى السنون ويهتدى العلم إلى سر البروتربلازم الحى . . . إن ركب الزمن يسير . . . وإن الحياة تعثر كل يوم على شىء جديد . لماذا استبطأت الزمن فنهشت تروسه أوصال عمرى ؟

لماذا تعجلت الحياة فلفظتنى عجلاتها وقذفت بى إلى فوق . . . فوق . . . إلى قمة عالية حقاً ولكن الوحدة تغلفها ويكسوها الجليد . . .

آه . . .

ما أقسى الصمت ؟ وما أرق أصوات البشر ولو كانت ضجيجاً . . .

ما أبرد الوحدة ؟ وما أدفأ أنفاس الناس ولو كانت مريضة . .

ما أقبح السكون ؟ وما أجمل الحركة ولو كانت معارك . . .

ما أفظع الفراغ ؟ وما أحلى التفكير والانشغال حتى بالفشل . . .

* * *

حل الفراغ بأعماقى فوجد العملاق مكاناً ليتحرك . . . تلاشى الزحام داخل نفسى ففرد العملاق ذراعيه وساقيه وبدأ يتثاءب ويتمطى . . .

ماذا تريد ؟ تمردت على كل شىء ورفضت حياة النساء . . . سعيت وراء الحقيقة فقادتك الحقيقة إلى أن تغلق على نفسك جدران نفسك . . .

والرجال . . . قلبت فيهم وفتشت وبعثرت ثم مصمصت شفتيك في ازدراء . . .

ماذا تريد ؟ رجلا يعيش فى خيالك ولا يمشى على الأرض ؟ . . .

رجلا يتكلم ويتنفس ويفكر وليس له جسد الرجال ؟ أيمكن لك أن تنسى ؟ هذه الأجساد الملقاة على مناضد التشريح ؟ هذا الشخير الكثيب القريب من وسادتك ؟ هذه النظرات اليائسة العاجزة المسكينة ؟ . . . هذا الموت الذى يحصد الأطفال ؟

ألا تغلق عليك باب زنزانتك وتنام مرة أخرى ؟

لكن الليل أصبح طويلا . . . وأوهام الليل عادت تعشعش حول السرير . . . والسرير أصبح واسعاً بارداً مخيفاً . . . والعملاق لا يريد أن ينام . . . والنجاح ليس له طعم . . . والشهرة ليس لها معنى . . . والمال مجرد أوراق ميتة لا تدب فيها الحياة . . .

* * *

٦

لمحت بين الخطابات والأوراق بطاقة صغيرة . . . مددت لها يدى والتقطتها . . . ووجدت أنها دعوة لى من إحدى الهيئات لحضور حفل عشاء . . . نهضت بسرعة وركبت عربتى وانطلقت إلى مكان الحفل . . .

دخلت إلى القاعة الفسيحة . . . ورأيت الأنوار تتلألأ براقة والمدعوين يرتدون ملابس مكوية منشاة . . . ووجوهاً رسمية مشدودة .

وجابت نظراتى فى المكان الواسع وبين الناس الكثيرين كأنما تبحث عن شىء . . . ورأيت الرجال يختلسون النظر إلى النساء . . . والنساء يختلسن النظر إلى الرجال . . . ومشيت بين المدعويين أهز رأسى لاهتزازات رؤوسهم كما تهز الدمية رأسها من فوق الزنبرك .

وفجأة ساد الهرج بين المدعوين ورأيتهم يندفعون ويتدافعون ويلتفون حول رجل قصير بدين . . . الكل يريد أن يمشى إلى جواره . . . الكل يريد أن يظهر فى الصورة معه . . . الكل يريد أن يظهر على شاشة التليفزيون بالقرب منه . . . الكل يريد أن يذكره بوجهه وصوته ووجوده . . .

تركت الزحام ووقفت فى ركن هادىء . . . والتفت إلى جانبى فرأيت رجلا واقفاً . . . رجلا عاديا . . . يلبس ملابس عادية . . . ويقف وقفة عادية . . . ليس قصيراً وليس طويلا . . . ليس نحيلا وليس

بديناً . . . ولكنى أحسست أن شيئاً غير عادى يحيط به . . . لعل ملامحه كانت طبيعية مريحة بخلاف تلك الملامح المشدودة المنشاة . . لعله كان أنيقاً بالرغم من بساطته . . . لعله كان مترفعاً عن الالتفاف حول ذلك الرجل . . . لعله . . . لعله . . .

والتفت ناحيتى . . والتقطت عيناه عينى . . . وشعرت بهزة غامضة فى أعماقى . . . وابتسمت عيناه ابتسامة خفيفة غامضة . . .

وقال بصوت فيه الكثير من حركة عينيه :

– إنهم يجرون خلفه . . .

وسألته فى بساطة : لماذا ؟

قال : إنه رئيس الهيئة.

وظل يتأمل الناس لحظات وفى عينيه نفس الابتسامة الخفيفة الغامضة . . . أهى نظرة إشفاق أم سخرية ؟ أهى نظرة احترام أم استخفاف ؟ لم أعرف . . .

والتفت ناحيتى مرة أخرى . . . ونظر فى عينى مدققاً ثم قدم لى نفسه فى بساطة وطبيعية فقدمت له نفسى على نحو ما فعل .

وقال وهو يشير إلى مائدة صغيرة منفردة : لنجلس إلى هذه . . . إنها أبعد مائدة عن رئيس الهيئة . . .

وضحك وضحكت . . . وسرنا معاً إلى المائدة وجلسنا متقابلين . . .

ونظر إلى أطباق الطعام ثم نظر إلىّ وقال باسماً : أنا لا أجيد تقاليد الحفلات . هل أساعدك ؟

ماذا فى عينى هذا الرجل ؟

وقلت له : لا . . . أشكرك . . . أنا لا أحب تقاليد الحفلات . . .

وبدأنا نأكل فى صمت . . . وقال بعد لحظات : هل تجدين وقتاً لسماع الموسيقى ؟

فقلت : قليلا . . . لم أسمع لحنك الأخير ولكنى قرأت عن نجاحه وإعجاب الناس به .

وتاهت نظراته بعيداً عنى ثم نظر إلىّ وقال : لست راضياً عنه .

قلت : ولكن الجمهور راض .

قال : الفنان لا يستريح إلا اذا رضى هو .

قلت : لماذا تذيع لحناً لست راضياً عنه كل الرضا .

قال : هذا ما يعذبنى . . . إن ما يرضينى أنا لا يفهمه الجمهور .

قلت : ولماذا لا تؤلف الألحان التى ترضيك بصرف النظر عن الجمهور .

قال : ومن يسمعها .

قلت : القليلون . . . واحد فقط . . . ولكن هذا أفضل من إرضاء الجمهور بأى شكل .

قال : هذا ما أفعله أحياناً .

وأطرق إلى الأرض لحظة كأنما يفكر ثم رفع إلىّ عينيه العميقتين وقال :

– تكلمنا عن الموسيقى كثيراً وأنت لم لا تتكلمين عن الطب ؟



قلت: إن الحديث عن الطب لا يناسب جو الحفلات . . .

قال في دهشة لماذا ؟

قلت: إنه حديث عن الألم والمرض . . . عن وجه الحياة الحزين .

قال : لا . . . إن آلامه عظيمة حقاً ، ولكن سعادته أعظم . . . إنى أتصور سعادتك حين تنقذين إنساناً من الموت . . . إنها أسعد لحظة فى حياة الطبيب . . .

قلت: وما هى أسعد لحظة فى حياة الفنان . . . حياتك ؟

قال : حين أخلق لحناً يرضينى . . . أو حين أسمع لحناً رائعاً . . .

ونظر إلىّ نظرة عميقة وقال باسماً : أو حين أعثر على صديق جديد . . .

حاولت أن أتفادى عينيه . . .

لكنه لم يدعنى أهرب منهما ... ورأيت نظراته تحوطنى وتحاصرنى فى قوة وثقة . . فأحسست بقلبى يخفق خفقة واحدة هائلة .

* * *

تقلبت فى فراشى مؤرقة . . . أصبح السرير خشناً مليئاً بالحصى والمسامير . . .

تركت الفراش وأخذت أمشى فى الحجرة . . . أحسست أن الحجرة ضيقة كالزنزانة والجو خانق كحبل المشنقة . .

خرجت إلى الشرفة ووقفت لكنى لم أطق الوقوف . . جلست . . لكن لم أطق الجلوس . . . فوقفت ومشيت إلى حجرة الطعام . . . حاولت

أن آكل شيئاً ، لكن مذاق الطعام كان متغيراً غريباً . كأنه مصنوع من المطاط . . .

أصبحت لا أحتمل أى شىء . . . لا الجلوس ولا الوقوف ولا المشى ولا النوم . . . أصبحت لا أجد طعماً لأى شىء . . . لا الطعام ولا الماء ولا الهواء . . .

والأشياء التى كانت تملأ وقتى أصبحت تافهة فارغة . . . واهتماماتى التى كانت تبتلع نهارى ابتلعها شعورى الجديد . . .

سؤال واحد يجوب آفاق عقلى وروحى . . .

هل أطلبه ؟ هل أكلمه ؟ هل أبدأ أنا الحديث ؟

ونظرت إلى الآلة الصغيرة . . . تلك الكتلة المربعة السوداء التى كنت أنقلها بيد واحدة من مكان إلى مكان . . . وأخرسها بأصبع واحد حين أريد . . . تلك الكتلة أصبحت الآن شيئاً رهيباً . . . جهازاً سحرياً خطيراً . . . أنظر إليها من بعيد فى حذر . . . وأقترب منها فى وجل . . . وألمسها بأصبعى فتمس عقلى وقلبى كهربة عنيفة كأنما مست يدى سلكاً كهربياً عارياً . . .

أتتغير الأشياء إلى هذا الحد حين تتغير نظرتنا إليها ؟

وجلست إلى جوار التليفون أفكر . . . وتذكرت كلماته حين كتب لى رقمه ، قال : اطلبينى حين تريدين . . .

إنه يحترم إرادتى . . . لماذا لا أحترم إرادتى إذن ؟

لقد كنت أحترم إرادتى دائماً . . . أليست إرادتى هى التى تحكمنى

وليست إرادة الغير ؟ . . . ألم يحاول رجل أن يمتلك حياتى فلم أملكه شيئاً لأنى لم أكن أريد ؟ . . . ألم يحاول رجل أن يعطينى حياته فلم آخذ شيئاً لأنى لم أكن أريد ؟ أليست إرادتى هى التى تحدد عطائى وأخذى ؟

وأنا أريد أن أراه الآن . . . نعم أريد . . .

ودارت أصابعى الثابتة فى ثقوب القرص ست دورات . . . وجاءنى رنين عال متواصل وفجأة انقطع الرنين فانقطع الدم من قلبى وسمعت صوته العميق يقول : ألو

لم أفكر فى أساليب الدلال . . . لم ألجأ إلى ما تلجأ إليه النساء من لف ودوران . . . لم أتظاهر بأننى أسأل عليه لمجرد السؤال . . . لم أضع البرقع على وجهى وأغمز له من وراء الباب . . . لم أصطنع السذاجة والغباء . . .

قلت له فى صراحة وصدق : أريد أن أراك .

– متى ؟

– الآن .

– أين ؟

– أى مكان . . . لا أهمية للمكان .

– أين أنت الآن ؟

– فى بيتى .

– سأكون عندك بعد قليل .

تهاويت على المقعد كأنما انسحبت منى الحياة . . . وتلفت حولى أنظر إلى أثاث بيتى وجدرانه كأنما أنظر إليها لأول مرة .

ودب النشاط والحماس فى كيانى فجأة . . .

هذه الصورة يجب أن أنقلها هنا . . . هذا الكرسى يجب أن أضعه هناك . . هذه الزهرية يجب أن تمتلىء بالورد . . . وأرسلت الخادم ليشترى باقة من الورد . . . ولبست الفوطة ووقفت فى المطبخ . . . وصنعت كعكة بالبيض واللبن وضعتها فى الفرن . . وصنعت قالباً من الجيلى وضعته فى الثلاجة . . .

أخذت أجرى كالطفلة الصغيرة من الفرن إلى الثلاجة . . . ومن الثلاجة إلى زهرية الورد ومن زهرية الورد إلى صورة الحائط . . ومن صورة الحائط إلى الفرن . . .

تصبب العرق من وجهى وسال إلى فمى ، لكنى وجدت له طعماً جديداً لذيذاً . . . ارتفع صدرى وانخفض فى أنفاس لاهثة متقطعة كجواد سباق لكنى نسيت أن لى رئتين . . . وضعت يدى داخل الفرن ولم أشعر بلسع النار كأنما نسيت خلايا مخى ألم الحرق . . .

التوى ظهرى من الانحناء تحت الموائد والانثناء فوق الرفوف كأنما تلاشت عظام عمودى الفقرى . . . ثم دق جرس الباب دقة واحدة رنت فى قلبى رنيناً غريباً رهيباً كأنى أسمع صوت الجرس لأول مرة فى حياتى . . .

* * *

جلس فى حجرة الاستقبال وعيناه العميقتان الباسمتان أبداً تتجولان بين صور الحائط . وملامحه الحادة الرصينة تتلفت حوله فى استطلاع واهتمام . . وأنا أجلس على غير بعد منه أحاول أن أخفى ذلك الشعور العجيب الذى يهز أعماقى . . . وأحاول أن أكتم الفرحة الغريبة التى تملأ قلبى ... وأحاول أن أتجاهل تلك الرجفة العنيفة التى أصابت روحى . . .

ولكن هيهات ... عيناى تفضحانى بنظراتهما المتعثرة . . وشفتاى تخوناني برعشتهما المضطربة وصوتى يكشفنى بنبرته الوجلة . . ورأيته يبتسم فى رقة ويقول :

— بيتك جميل . . . بيت فنانة . . .

قلت : أنا أحب الفن ولكن الطب يستولى على كل وقتى . . .

قال : إن الطب فن فى حد ذاته . . .

ونظر إلىّ . . .

ماذا فى عينى هذا الرجل ؟ بحر عميق ليس له قرار . . ؟

وقلت له : أتشرب فنجاناً من الشاى ؟ فهز رأسه فى إيماءة خفيفة وهو يبتسم فتركته وذهبت أعد الشاى . . . ونظر إلى الخادم فى دهشة وريبة وهو يرانى لأول مرة منذ دخل بيتى وأنا أقف فى المطبخ أعمل شيئاً . . .

وفتحت الفرن وأخرجت الكعكة وقطعت منها قطعة وضعتها فى طبق إلى جوار الشاى — وعدت إليه — ونظر إلى الكعكة الطرية وقد ظهر أنها

لم تنضج بعد . وابتسم .. . لكنى لم أستطع أن أقاوم الضحك فضحكت وضحك معى .. . وأخذنا نضحك طويلا كأننا نريد أن نضحك إلى الأبد .. . ومزقت الضحكات الطبيعية الطلقة ذلك الستار الرقيق من الحرج الذى كان يفصل بيننا و رأيته ينظر فى عينى نظرة عميقة رصينة وقال : لم أر امرأة مثلك أبداً . . .

قلت : لماذا ؟ قال : النساء دائماً يخفين مشاعرهن أو ملامحهن بستائر كثيفة مصنوعة . .. أما أنت فلا تخفين شيئاً . حتى وجهك لم تضعى عليه المساحيق . . .

قلت : أنا أحب حقيقتى أثق فيها ولا أستطيع إخفاءها .

قال : أنا أحب المرأة الصريحة الصادقة .

قلت : كثير من الرجال يعتقدون أن الصراحة تفسد أنوثة المرأة . . . إنهم يحبون المرأة المتخفية المراوغة فيمارسون معها غريزة المطاردة والصيد . . .

قال : إنهم لا يفهمون من المرأة شيئاً سوى أنها متعة حسية .

قلت : قليل من الرجال من يفهم أنوثة المرأة الذكية ذات الشخصية القوية .

قال : أعتقد أن المرأة مهما بلغ جمال جسمها فإنها تفتقد الأنوثة إذا كانت غبية أو ضعيفة الشخصية أو متصنعة أو كاذبة .

قلت : وماذا عن الرجولة ؟

قال : معظم النساء لا يعرفن عن الرجولة شيئاً سوى أنها كفاءة الرجل الجنسية .

قلت : الرجل فى رأيى يفتقد الرجولة مهما بلغت كفاءته الجنسية إذا كان غبيًّا أو ضعيف الشخصية أو متصنعاً أو كاذباً .

ونظر إلىّ طويلا وقال : أين كنت كل هذه السنين ؟

– كنت مشغولة بالبحث .

– عن أى شىء ؟

– عن كل شىء .

– ألم تنالى ما تريدين ؟

– الذى أريده لم أنله أبداً .

– نحن لا نحصل على كل شىء فى الحياة .

– عشت فى حرمان دائم .

– الحرمان يجعل أوتار أعصابنا مشدودة نستطيع عليها العزف . أما الإشباع فيجعلها ترتخى فلا تخرج لحناً .

كان يكلمنى . . . وكان ينظر فى عينى دائماً . . . لم أره مرة ينظر إلى ساقى . . . لم أره مرة يختلس النظر إلى صدرى . . . وكنا وحدنا . . . والأربعة جدران مغلقة علينا . . . لكنى لم أشعر أنه يرى الجدران أو يحس بها . . . كان يحلق فى سماء عالية . . . وكنت أجلس إلى جواره بلحمى ودمى . . . لكنى لم أحس أنه يخاطب جسدى . . . كان يخاطب عقلى وقلبى . . .

وأغمضت عينى فى راحة واطمئنان . . .

* * *

جلست إلى جواره أنظر إلى أصابعه الطويلة الذكية وهى تمسك بريشة الكمان فى ثقة وبراعة ، والأنغام تترامى إلى أذنى عالية هابطة . . . فرحة حزينة . . . صاخبة هامسة . . . ضاحكة باكية . . . وقلبى معها دقة بدقة . . . يعلو ويهبط . . . ويرقص ويبكى . . . ويئن ويضحك . . . وتوقفت أصابعه عن العزف . . . وسألنى . . .

– ما رأيك ؟

– رائع .

– وضعته الآن فقط .

– فيه بكاء وفيه فرح .

– هذه حياتنا .

– ما أجمل الفن . . . ليتنى تعلمت الموسيقى لأخلق هذه الألحان .

– ليتنى تعلمت الطب لأشفى كل الناس .

– الطب يشفى فقط ولكن الفن يشفى ويخلق .

– يمكنك أن تخلق فى الطب جديداً . . . هناك أمراض ليس لها علاج حتى الآن .

ونظرت إليه . . .

– أين كنت كل هذه السنين ؟

– كنت أبحث عنك .

– كانت لك تجارب ؟

– بالطبع .

— وأنت ؟

— بالطبع .

— بالتجربة وحدها نتعلم .

وسمعت صوته العميق يناديني . . .وسألني : ماذا فى عينيك ؟

ووقف . . . فوقفت. . . وقفنا متواجهين تفصلنا خطوة واحدة . . .

وسمعته يقول بصوته الدافئ : أحبك . فشعرت بكل شىء فى كيانى يغوص إلى أعمق بعد من نفسى ثم يرتفع فجأة إلى أعلى قمة منها . . . وابتسم . . . وقطع الخطوة التى بيننا فى لحظة وأخذنى بين ذراعيه . . . ووضعت رأسى على صدره . . .

— لم هذه الدموع ؟

— أحبك .

وضمنى إليه . . . ضمنى حتى ضاع كيانى فى كيانه ، وتلاشى وجوده فى وجودى . . .

* * *

دق جرس التليفون . . . هبط بى رنينه العالى من السماء إلى الأرض . . . فوقفت على قدمى وسرت إليه ورفعت المسماع : ألو .

وجاءنى صوت ملهوف يقول : أنقذيه من الموت يا دكتورة . إنه يموت . . .

أمسكت المسماع فى يدى ونظرت إليه . . . وقال على الفور :

— مريض ؟

– نعم .

– ستذهبين ؟

– فوراً .

– هل آتى معك ؟

– إذا شئت .

ركبت إلى جواره فى عربته وانطلق بسرعة مذهلة . . . ووصلنا بيت المريض . . . ولم يكن بيتاً ، وإنما كان حجرة ضيقة رطبة فى بدروم مظلم أسفل إحدى العمارات الكبيرة . . . ورأيت شاباً نحيلا يرقد على مرتبة قذرة على البلاط وإلى جواره بركة صغيرة من الدماء . . . وضعت السماعة على صدره وعرفت أنه مريض بالدرن الرئوى ، وأن حياته تتوقف على زجاجة دم . . . وتلفت حولى . . . ورأيته إلى جوارى وقال على الفور :

– هل تريدين شيئاً ؟

– زجاجة دم الآن من مركز الإسعاف .

وجرى إلى الباب وهو يقول :

– سأذهب بالعربة وأحضرها حالا .

وجلست على صندوق خشبى إلى جوار المريض وحقنته ببعض الدواء . . . وأعددت أدوات نقل الدم . . . وكشفت عن فصيلة دمه . . .

ثم رأيته يدخل مندفعاً وفى يده زجاجة دم . . . ونهضت مسرعة . . . وأمسك ذراع المريض . . . وظل إلى جوارى يساعدنى حتى أدخلت الإبرة

فى الوريد وثبتها . . .

ونظرت إليه . . . ورأيت العرق يتصبب من وجهه . . . ورأيت رأسه قريباً من رأس المريض .

وهمست فى أذنه :

— ابتعد أرجوك . . .

— لماذا ؟

— قد تنتقل العدوى إليك .

— وأنت ؟

— هذا واجبى . . . على أن أقوم به تحت أسوأ الظروف . . .

ونظر إلىّ فى صمت . . . ولم يتحرك من مكانه حتى انتهيت من تركيب جهاز نقل الدم . . .

جلسنا متجاورين على الصندوق الخشبى نرقب قطرات الدم وهى تتساقط فى لهفة وسرعة من الزجاجة إلى الخرطوم الطويل إلى وريد المريض . . . وكأنما دبت الحياة فى تلك القطرات الحمراء القانية فشاركتنا لهفتنا على إنقاذ المريض . .

ونظرت إليه وابتسمت . . . فابتسم فى رقة وهو صامت . . .

وقلت : لو لم تكن معى لما استطعت أن أفعل كل هذا وحدى .

قال : بل كنت تستطيعين .

وأشار إلى زجاجة الدم وقال :

— لم يبق بها إلا القليل .

ونظرت إلى عينى المريض فرأيت نظراته أقل ذهولا وأكثر تركيزاً . . . وأنفاسه أقل سرعة وأكثر انتظاماً . . .

ونزعت الإبرة من الوريد . . . وفتح المريض شفتيه اليابستين وقال بصوت ضعيف وهو ينظر إلينا : أشكركم .

ودس يده فى إعياء تحت الوسادة القذرة ومد لى ذراعه النحيل وقد قبضت على جنيه . . .

لا أدرى ماذا حدث لى فى تلك اللحظة . . . فقد دارت الدنيا بى حتى كدت أفقد الوعى . . . ولم أشعر إلا بيد حانية تسندنى . . . وقال لى فى حنان : هل تشعرين بتعب ؟

ونظرت إليه . . . ولم أدر ماذا أقول له . . . فلم أكن أشعر بتعب ولكنى كنت أشعر بخجل شديد وعار . . .

هل استنكرت ذلك الموقف المزرى العجيب ؟ لا أدرى . . . ولكنى شعرت فى تلك اللحظة أنه ليس من الشرف ولا العدل ولا المنطق أن يتلقى الطبيب أجراً من المريض . . .

كيف كنت أمد يدى كل تلك السنين الماضية وآخذ من المرضى مالا . . . أى مال ؟ . . . كيف كنت أبيع فى عيادتى الصحة للناس ؟ كيف ملأت خزينتى من عرق المرضى ودمائهم ؟

آه . . .

وأحسست بيده الحانية تسندنى وتجلسنى فى العربة . . . وانطلق بى إلى البيت . . .

وقال باسماً بعد أن وضعنى فى السرير . . .

— هل أستدعى طبيباً ؟

وأحسست بدموع ساخنة على وجهى . . . وأمسك يدى فى رقة وقال :

— لم هذه الدموع ؟

— لم أكن أفهم شيئاً . .

— لماذا ؟

— كنت عمياء . . .

— لماذا ؟

— لم أكن أرى إلا نفسى .

— لماذا ؟

— كانت المعارك تحجب عنى الحقيقة .

— أية معارك ؟

— معارك الناس جميعاً ابتداء من أمى .

— ألم تحققى شيئاً ؟

— لا . . .

لا . . . لم أحقق شيئاً . . . فليس الطب هو أن أشخص الداء وأصف الدواء وأقبض الثمن . . . وليس النجاح هو أن تمتلىء عيادتى بالناس وخزينتى بالذهب ويلمع اسمى كالنجوم . . .

ليس الطب سلعة . . . وليس النجاح مالاً وشهرة . . .

الطب هو أن أمنح الصحة لكل من يحتاج الصحة بلا قيود

ولا شروط . . . والنجاح هو أن أمنح من عندى للآخرين . . .

ثلاثون عاماً مضت من عمرى دون أن أعرف الحقيقة . . . دون أن أفهم الحياة . . . دون أن أحقق ذاتى . . . وكيف كنت أحققها وأنا لا أفكر إلا فى أن آخذ وآخذ وتحقيق الذات لا يكون إلا بأن أعطى وأعطى . . . ولكن كيف كان يمكننى أن أعطى شيئاً ليس له عندى وجود ؟

ونظر إلىّ فى حنان وقال :

— حاولى أن تنامى .

— لا أستطيع .

— إنه سيشفى بعد زجاجة الدم .

— لن يشفى أبداً .

— إنك لم تأخذى منه الجنيه .

— آه . . . لا تذكرنى . . .

ولكن هل يمكن أن أنسى ؟ . . .

تلك الحجرة الضيقة فى البدروم ، تلك المرتبة القذرة على البلاط ؟ تلك البركة الصغيرة من الدماء ؟ ذلك الوجه الشاب النحيل ؟ تلكما العينان الغائرتان اليابستان ؟ وتلك الذراع النحيلة الطويلة ممدودة فى وجهى قابضة على مدية حادة تشطر عقلى وقلبى شطرين . . .

آه . . .

وأخفيت رأسى فى صدره . . . أحتمى فيه . . . وألتصق به . . . أحسست أننى تجردت من عمرى الذى فات وعدت طفلة تحبو وتتعلم المشى . . .

أصبحت فى حاجة إلى يد حانية تسندنى . . . لأول مرة فى حياتى أشعر بالحاجة لأحد ، حتى أمى لم أكن أشعر بالحاجة إليها . . .

ودفنت رأسى فى صدره و بكيت . . . بكيت فى راحة وهدوء .

رقم الإيداع		١٨٣٠ / ١٩٨٥
الترقيم الدولى	٤-١١٣٣-٠٢-٩٧٧	ISBN

١٧٤ / ٨٣ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٣٠ م

٤٠٢٩٧٢/٢

